دراسات



إصدارات مئوية الدولة الأردنية 2021

هشـــام عـــودة

عمان في البال

عمّــان
في البال

- عمان في البال.
- أحمد عبدالحميد عودة.
- **الطبعة:** الأولى، ٢٠٢١م

- **الناشر: وزارة الثقافة**

شارع صبحي القطب المتفرّع من شارع وصفي التل، بناية رقم ٢٠
ص.ب: ٦١٤٠، عمان – الأردن
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨ / ٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨
بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

- **التنسيق والإخراج الفني:** رامي عطا الله

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢١/١٠/٥٨٣٢)

٩٥٦.٥١١
عودة، أحمد عبدالحميد
عمان في البال / أحمد عبدالحميد عودة.
– عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٢١.
(٨٦) ص
ر.إ.: ٢٠٢١/١٠/٥٨٣٢
الواصفات: / العواصم/ / المدن الكبيرة/ / الاحياء السكنية/ / الحياة الاجتماعية/ / عمان/ / التاريخ الاجتماعي
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك: (978-9957-94-727-9)

عمّــان
في البال

أحمد عبدالحميد عودة
(هشام عودة)

٢٠٢١م

عمّان

إذ نتعربش جبالها

لم تنم حورية الوادي، بل صفقت بجناحيها الورديين فوق جبال الروح التي تعانقت مع الأفق، وطارت في فضاء عيون عشاقها، مثل عاشقة فاتنة، تلك هي عمان، مدينة الجبال التي زادت كثيرا عن السبعة، وفتحت قلبها الواسع لاحتضان كثير من العصافير التي آوت إلى حضنها وشبابيك منازلها المعتقة بطعم المحبة.

من وعد سيلها العتيق، الذي غيبته عناوين الحضارة -التي لا ترحم- عن عيون أبنائها، بعد أن التحم في شرايين القلب، إلى فضاء مفتوح على مضيف عامر بدلال القهوة العربية، تلك هي عمان أيضا، الحمامة التي لم يتوقف شدوها منذ شدت رحالها إلى المستقبل، وقررت أن لا تعير وسادتها لغير الجباه العالية، وهي نفسها منذ أن استقبلت ذات صباح ربيعي خيول الثورة العربية الكبرى وفرسانها الأوائل، الذين أعادوا صياغة حياتها، كما تشتهي قصائد الفخر والفروسية.

كثيرا ما تعربشنا على جبالها المتوهجة بالحياة، كما يتعربش الطفل على كتف أمه، وغمرنا وجوهنا بجدائلها الذهبية، تماما مثلما يفعل الأطفال المدللون مع أمهاتهم المفرطات بالحنان، وظلت عمان، مدينة الجبال التي تعانق الشمس، تملك الوقت والمحبة لمداعبة أبنائها الذين ما انفكوا يتعربشون على سفوح جبالها التي لم تعد سبعة.

يمكن لأي عاشق منا أن يطوف بحار الدنيا، ويقف على حواف أنهار لا تحصى، بهيبتها وجمالها وفتنة خضرتها، لكن حنين هذا العاشق يظل يشده إلى حافة السيل

الذي روى ذات يوم عطشنا، وعطش أرضنا، سيل ما يزال متخيلا في الذاكرة، وما تزال طيوره تغازل أقحوانة الدار العتيقة، لا لشيء، إلا لأن عمان لم تعد مجرد مدينة، بل تحولت إلى أيقونة نقشت حروفها في دائرة القلب، وتعلق نشيدها في حنايا الروح المتعبة بالعشق.

لم تسرق المدن والعواصم عشاق عمان، الذين أسلموا أشرعتهم لرياح محبتها، ووضعوا رهانهم في حضنها الذي تغار منه الشمس والبحار، وتكتبه قصائد الشعراء المفتونين بزرقة سمائها.

ومن جبالها التي التصقت بأضلاع الصدر، وغاصت في شرايين المحبة، تفتح أبوابها لحياة هادئة واثقة مطمئنة، لا تغلق شبابيك فرحها، ولا تنطفئ النيران في مضايف أهلها التي تفوح منها رائحة القهوة وريح الشهامة، وعلى سفوح جبالها نبتت شجيرات الوطن التي امتدت جذورها إلى أبعد مما كتبته صفحات الكتب، وصار اسمها علامة فارقة في خرائط الدنيا، وفي أطلس المدن التي صار لها دور في كتابة التاريخ، والحفاظ على هيبة الجغرافيا.

هي عمان، مدينة الجبال في عناقها الأبدي مع الأفق، قالت للحياة انطلقي، فدبت الحركة في محيط الجامع الذي انتصبت حوله عيون الناس ومعاولهم وبضاعتهم التي ما بارت أبدا، ولم يتوقف صهيل خيل فرسانها منذ دقت أوتادها على حافة السيل الذي روت مياهه عطش الآباء والأجداد، وصار مفتاح الحياة لمدينة امتزجت جدائلها بأشعة الشمس.

هي عمان، شقيقة الروح، وشمعدان الزمن الذي انحاز إلى خياراتها، لتظل واقفة، كما أراد بناتها، عصية على العتمة، شهية كحبات التمر، عنيدة كصخور جبالها التي لم تهتز أبدا أمام الرياح.

بيوت عمّـان العتيقة

أسرار السياسة والاقتصاد

لم تكن عمان بداية القرن الماضي، سوى قرية صغيرة، هكذا يمكن وصفها استنادا إلى ما حوته الوثائق، وما جاء في سيرة أبنائها الأولين، وما ميزها في تلك الفترة أن مجموعة من المهاجرين الشركس استوطنتها، فتناثرت بيوتهم الطينية حول سيلها العتيق، الذي لم يعد الآن موجودا إلا بالاسم فقط.

وإذا كانت الدراسات التاريخية والأثرية تشير إلى أن عمان ظلت مأهولة بالسكان عبر تاريخها الممتد عميقا، إلا أن القرن الأخير في حياة المدينة، شهد تطورا واسعا، بحيث صارت اليوم واحدة من أجمل العواصم العربية، وأكثرها قدرة على متابعة تطورات العصر.

قاع المدينة، أو ما يسميه أبناؤها وسط البلد، أو عمان القديمة، هي تسميات تطلق على مكان واحد، وتحديدا تلك المنطقة المحيطة بالجامع الحسيني، الذي تم بناؤه عام ١٩٢٤ على أنقاض جامع عثماني، وصار هذا الجامع عين المدينة وبوصلة حركتها في الاتجاهات كافة، وأخذت بيوت المدينة التي أقيمت على مقربة منه، تنتشر تدريجيا على سفوح الجبال المجاورة وقممها.

من تأخذه قدماه للتجول في وسط البلد، يستطيع ببساطة أن يتعرف على شيء من تاريخ المدينة، من خلال قراءته لحياة بيوتها العتيقة، التي ما تزال قائمة حتى الآن، والتي كانت في يوم مضى مسرحا لأحداث مهمة وكبيرة، ليس في حدود الإمارة الفتية

فقط، بل اتسعت هذه المهمة في كثير من الأحيان، ليكون لها دورها في صناعة بعض الأحداث الكبرى في المنطقة والتأثير فيها أيضا.

بيوتات عمان العتيقة، أسهمت في رسم السياسة العامة للإمارة الفتية، وحددت حركة اتجاه السياسة والاقتصاد والعلاقات المختلفة، لدولة تشق طريقها في منطقة تعصف بالأحداث.

وإذا كانت عمان مدينة تجدد نفسها باستمرار، كما يرى ذلك بسهولة أبناؤها وضيوفها، فإنه ما تزال في العديد من أحيائها وشوارعها العتيقة، مجموعة من البيوت المميزة التي تستوقف الناظرين دائما، ذات البناء المعماري الخاص، يعرفها العمانيون جيدا، ويعرفون أصحابها، ويعرفون كذلك حجم الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي لعبه أصحاب هذه البيوت في النصف الأول من القرن العشرين، في حياة المدينة ومحيطها، مقترنا بالدور الذي لعبته عمان نفسها، كعاصمة ناشئة لإمارة فتية، تحولت إلى مملكة بعد ربع قرن من تأسيسها، معتمدة في جانب من تكريس حضورها، على الأخبار التي كانت ترشح من داخل جدران هذه البيوت المعروفة الآن بأسماء عائلاتها، والموزعة على أحياء العاصمة القديمة.

في جبل التاج والجوفة وجبل الحسين وجبل اللويبدة وجبل عمان، وغيرها من المناطق والأحياء، كانت الحياة السياسية والثقافية تبدو أكثر وضوحا، وذلك لأكثر من سبب، فالعاصمة ما تزال ناشئة، وهي في طريقها للتوسع، وبالتالي فإن الناس في معظمهم يعرفون بعضهم البعض، ويعرفون حجم هذا البيت أو ذاك، في المنظور السياسي وحجم تأثيره في الحياة العمانية.

ويعود إنشاء الجزء الأكبر من هذه البيوت، والذي ما يزال الكثير منها قائما، إلى سنوات الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، وهي وإن بدت ضخمة البناء من الخارج، إلا أنها لا تختلف كثيرا في السمات العمرانية التي كانت شائعة في تلك الحقبة،

وإن كان الحجر هو السمة الأكثر بروزا في هذه البيوت، وهي سمة محببة لكل العمانيين، الذين ذهبوا إلى بناء بيوتهم وعماراتهم بالحجر أيضا، إلى درجة أن أمانة عمان الكبرى، تشترط على كل من يريد أن يبني بيتا جديدا، في عدد من ضواحي العاصمة الراقية، أن يتم ذلك بالحجر، حفاظا على جمالية المدينة، وانتماء لشيء من تراثها المعماري.

وتتميز بيوت عمان العتيقة، بالسور الذي يحيط بها من كل جوانبها، وبنوافذها الصغيرة المنتشرة على الجدران كلها، وبارتفاع سقفها عن المدى المتعارف عليه في البيوت العادية.

بعض كبار السن في عمان، ما يزالون يحتفظون بصورة تلك البيوت في أذهانهم، فهي بيوت تستقبل يوميا ضيوفا كثيرين، وفيها من الخدم والحشم ما يضفي عليها سمات من الاختلاف عن السائد الاجتماعي، وتقف أمامها سيارات مختلفة الألوان والأشكال أيضا، في الوقت الذي كانت فيه سيارات العاصمة محدودة ومعدودة.

ويؤكد بعض المعاصرين لتلك الحقبة، أن بيوتات العائلات الكبيرة في عمان، كانت تعرف من حجم بنائها الذي تنفرد به في المنطقة، خاصة مع مقارنتها بغيرها من البيوت المجاورة، وكانت هذه البيوت أيضا، مقصدا لعامة المواطنين، لمتابعة معاملة حكومية، أو طلب وظيفة، أو التوسط في أي شأن من شؤون الحياة، باعتبار أن مالكيها، هم أصحاب سطوة ونفوذ بالضرورة.

وتؤكد ذاكرة العمانيين أن مثل هذه البيوت المتميزة في طريقة بنائها، لم تكن حكرا على السياسيين ورجالات الدولة فقط، بل يعود بعضها لعدد من التجار ورجالات الاقتصاد، ووجوه العشائر وغيرهم من الوجهاء.

اللافت للنظر في بيوت العمانيين العتيقة اختلاف طريقة بنائها، وعدم وجود محددات ثابته لهذا البناء، ويعود ذلك حسب تفسير علماء الاجتماع، إلى اختلاف المرجعيات الثقافية والاجتماعية والجغرافية لأصحاب هذه البيوت من جهة، ولدور

البنائين وخبرتهم، وهم الذين ازدهرت مهنتهم في تلك السنوات، ويبدو هذا التفسير منطقيا حين نعرف أن عمان، بعد أن بدأت تمارس دورها السياسي والاقتصادي في عشرينات القرن الماضي، صارت محط أنظار أبناء المدن الأخرى، فأمّها المهاجرون من السلط والكرك ونابلس والقدس ودمشق وغيرها من المدن والحواضر القريبة والبعيدة، الذين رأوا في دورها وتطورها وسيلة لتحقيق مصالحهم وغاياتهم السياسية والتجارية والاجتماعية، في دولة فتية ذاهبة للتطور بشكل سريع.

وما يثير الاهتمام في كثير من بيوت عمان العتيقة، التي مر على بناء العديد منها أكثر من ثلاثة أرباع القرن، أنها ما تزال تحتفظ بكامل رونقها وبهائها المعماري حتى اليوم، وما تزال شاهدة على تاريخ مضى، ولم تخسر إلا تلك الحركة التي كانت تدب بنشاط في غرفها وصالوناتها، حين قرر أهلها هجر الكثير من هذه البيوت والانتقال بحركتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى فلل حديثة في أحياء عمان الراقية المنتشرة على جبالها المتجاورة والمتقابلة، فقد سرقتهم الأحياء الراقية في غرب العاصمة.

ولم يغب تاريخ بيوت عمان العتيقة، عن ذاكرة أمانة عمان الكبرى، ومؤسسات العاصمة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، حيث تسعى الأمانة إلى استملاك عدد من هذه البيوت، وتحويلها إلى نواد وجاليرهات ومنافذ ثقافية، ليطل الناس من خلالها على جزء من تاريخ المدينة.

ويعرف العمانيون بشكل جيد، وخاصة الشريحة المثقفة منهم، واحدا من هذه البيوت التي تركت أثرا طيبا في العين والذاكرة، وتكاد أرجلهم تقودهم يوميا إليه، وهو ما بات يطلق عليه "دارة الفنون"، العائدة لمؤسسة خالد شومان، التي ذهبت إلى شراء هذا البيت القديم، والواقع على سفح جبل اللويبدة، المقابل لجبل القلعة التاريخي، وقامت بتحويله إلى "دارة الفنون"، محافظة على بنائه وتراثه المعماري

الـداخلي والخـارجي، ومحولـة غرفـه وصـالوناته إلـى قاعـات للعـرض التشـكيلي، ولعرض الأفـلام السـينمائية، واسـتقبال المثقفـين في نـدوات وأمسـيات، تتنـاول شـتى صنوف الإبداع، وفي خطوة مماثلة، ذهبت أمانة عمان الكبرى إلى استملاك واحد من هـذه البيوتـات العتيقـة، والمطـل علـى المـدرج الرومـاني، قلـب العاصـمة ومركزهـا التاريخي، وقامت بتحويله إلى "بيت الشعر"، ليكون مسرحا لنشاطات شعرية وأدبيـة وثقافية متنوعة، وجامعا لمختلف المثقفين في الأردن، وهو يحمل بين جدرانه الكثيـر من تاريخ المدينة وأسرارها، وعمر بنائه من عمر الدولة الحديثة.

إن الباحث في أسرار المدينة يرى في جزئها الشرقي القديم، الكثير من الدلائل التي تيسر له عمله في لـذة الاكتشـاف، في الوقـت الـذي يكـاد فيـه جزءُهـا الغربـي، يخلـو مـن كثيـر مـن هـذه الأسـرار، بسـبب حداثـة نشـأته، وبسـبب اتسـاع أطـراف المدينة، والتشابك الذي حدث مـؤخرا في علاقـات أبنائهـا الاقتصـادية والتجاريـة والثقافية والسياسية، بحيث تحولت منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضي، إلى واحدة من أجمل العواصم العربيـة وأكثرهـا نظافـة وبهـاء، ويحـرص أبناؤهـا علـى استمرار هذا البهاء.

إن بيوت عمان العتيقة تمثل اليـوم جـزءا مـن هويـة العاصـمة، وسـمة مـن سـمات معمارها الـذي حافظت عليـه، وهـي علامـات فارقـة في تـاريخ عمـان، مـا تـزال ماثلـة للعيان في ذاكـرة أبنائهـا ووعـيهم السياسـي والاجتمـاعي، وإن كـان الـبعض في سـالف السـنوات، ينظـر لهـذه البيـوت أو لبعضـها، بشـيء مـن الريبـة والغمـوض والحسـد والانبهـار، فـإن الجميـع مـدعوون الآن للحفـاظ علـى هويـة هـذه البيـوت ومعمارهـا، كجزء من الحفاظ على تاريخ المدينـة وذاكرتهـا التـي لا تشـيخ، لكـن الشـيء الـذي لا يغيب عن ذاكرة ووعي أي باحث في تاريخ المدينة وحركة بيوتها وطـراز معمارهـا، أن هذه البيوت تختلف من حيث دورها وشكلها عن بيوت قد تكون مشـابهة في وظيفتهـا

في مدن أخرى، مثل القدس وبغداد ودمشق والقاهرة، نتيجة الدور التاريخي لهذه المدن، وإن كانت عمان اليوم واحدة من العواصم التي يصنع فيها القرار السياسي.

بيوت عمان العتيقة، شامة مميزة في جبين عاصمة تنتشر على سفوح وقمم جبالها عمارات كثيرة، قد تكون متشابهة في طراز معمارها الحجري، لذلك فإن تلك البيوت تظل بمثابة لحظة التأمل في قلب مدينة وذاكرتها، إذ تدخل مئويتها الثانية، وهي في عنفوان شبابها، وتمد أذرعها لتتمدد أفقيا وعموديا في الاتجاهات كلها، حتى صارت تقف على مشارف مدن أخرى، كانت المسافة بينها وبين "القرية" عمان قديما، تحتاج إلى كل أدوات السفر وأمتعة الغربة.

مقاهي عمّـان

ذاكرة مدينة

لـم تستطع العاصمة عمان تكريس ظاهرة المقهى في الحيـاة السياسـية والثقافيـة في الـبلاد، وظلـت المقـاهي المنتشـرة في أرجـاء المدينـة مقتصـرة علـى تقـديم وظيفتهـا الاجتماعيـة لروادهـا مـن مختلـف الشـرائح والانتمـاءات، فيمـا أخفـق المثقفـون الأردنيـون في بنـاء علاقـة خاصـة بـالمقهى، علـى غـرار تلـك العلاقـات القائمـة بـين نظـرائهم ومقـاهي القـاهرة وبغـداد ودمشـق وبيـروت وغيرهـا مـن العواصـم، وتشـير الدلائل الملموسة إلى أن الناشطين السياسيين والحزبيين في الـبلاد، فقـدوا حـاجتهم للمقاهي بعد امتلاك الأحزاب السياسية لمقـرات معلنـة، منـذ مطلـع تسـعينات القـرن الماضي، فيما تتحدث الشهادات الشفوية والمكتوبـة لـبعض القيـادات الحزبيـة، مثـل الشيوعيين والبعثيين، أنهم كانوا يلتقون سرا في المقاهي الشعبية المنتشـرة في المدينـة، ومن على طاولاتها المتواضعة، صدرت العديد من بياناتهم السياسية، وفي أجوائها تم التخطيط لفاعليات حزبية وجماهيرية مهمة في التاريخ السياسي المعاصر لـلأردن، في سـتينات القـرن الماضـي وسـبعيناته، فيمـا تؤكـد الوثـائق أن المـؤتمر الـوطني الأردني الأول عقد في أحد مقاهي عمان عام ١٩٢٨، غير أن سيطرة بعـض القـوى السياسـية، الإسلامية والقومية واليسارية، علـى عـدد مـن النقابـات المهنيـة في الـبلاد، جعـل مـن مقرات هذه النقابات واجهات غير معلنة لنشاط الأحزاب السياسية، حين كان عملهـا محظـورا في مرحلـة الأحكـام العرفيـة، مـا جعـل مـن مقـر النقابـات منافسـا للمقـاهي الشعبية، ومكانا أكثر أمنا للناشطين الحزبيين.

ولم يتفق المثقفون في الأردن على تكريس مقهى بعينه، ليكون مكانا لتجمعهم، ويفسر معنيون بالشأن الثقافي هذه الظاهرة، بعدم وجود رمز ثقافي قادر على استقطاب زملائه ومريديه، كما هو الحال في عواصم أخرى.

وفي مطلع الألفية الثالثة، بدأ الروائي الراحل مؤنس الرزاز، بالجلوس في مقهى "عمون" الواقع على حافة جبل اللويبدة، لينضم إليه أصدقاؤه المثقفون، من بينهم الروائي هاشم غرايبة والروائية سميحة خريس والقاص سعود قبيلات وغيرهم من الأدباء، الذين اعتقدوا أن وجودهم في المقهى سيشكل نواة لجمع عدد أكبر من المثقفين، وقبل أن تتكرس علاقة الروائي الرزاز مع مقهى عمون، غادر هذه الدنيا في شباط ٢٠٠٢، وانفرط عقد ذلك التجمع بعد رحيله.

غير أن المقهى ذاته، شهد بعد ذلك حراكا ثقافيا ملحوظا، في أكثر من موسم لانتخابات رابطة الكتاب الأردنيين، وكاد أن يكون مقرا انتخابيا لإحدى الكتل الرئيسة في الانتخابات، إلا أنه سرعان ما كان يعود إلى سابق عهده، مع إقفال صندوق الاقتراع في الرابطة.

وقبل الحرب الأميركية على العراق، كانت عمان تستضيف عشرات المثقفين العراقيين المعارضين لنظام الرئيس الراحل صدام حسين، الذين استطاعوا تكريس مقهى السنترال وسط العاصمة، مكانا لتجمعهم، وكثيرا ما شهد المقهى معارك سياسية وثقافية بين رواده العراقيين، كما شهد ولادة مشاريع ثقافية أو صحفية أيضا.

غير أن قضيتين اثنتين، حرمتا ذلك المقهى من تكريس نفسه واجهة ثقافية، كما يقول مثقفون أردنيون، هما رحيل معظم المثقفين العراقيين عن الأردن بعد احتلال العراق، وفشلهم في نسج علاقات متطورة مع مثقفين أردنيين، ربما لدوافع سياسية، ما جعل المقهى حكرا على العراقيين فقط.

وبعد احتلال العراق، استبدل العراقيون مواقعهم، حيث ضمت عمان آلاف العراقيين المناهضين للاحتلال، الذين صارت لهم مقاهيهم أيضا، ومن أشهرها

مقهى الفوانيس في شارع الجاردنز، الذي يجلس فيه الشاعر حميد سعيد وأصدقاؤه، فيما تحول مقهى بلاط الرشيد في وسط البلد إلى مكان لتجمع المواطنين السودانيين، وصار لافتا أن تجد في المقهى روادا من غير هؤلاء، وهناك مقاهٍ أخرى تمثل نقاط التقاء وتجمع للمواطنين المصريين والسوريين والعراقيين وغيرهم من الوافدين في البلاد.

وفي مساءات الأيام العمانية، يحرص الحرفيون على الالتقاء في مقاهٍ خاصة لكل حرفة أو مهنة، فهناك مقاهٍ للخياطين وأخرى للعتالين وغيرها للتجار ورابعة للصاغة وخامسة للنجارين وهكذا، حيث يتبادل رواد هذه المقاهي الأحاديث في شؤون المهنة، ويعقدون الصفقات الخاصة بعملهم، سواء بين بعضهم البعض، أو مع غيرهم من المواطنين.

وفي تسعينات القرن الماضي فجع رواد مقهى العاصمة وسط المدينة، بقطع علاقته مع رواده، حين تحول إلى مجموعة من المكاتب التجارية، وهو الوضع نفسه الذي تعرض له أيضا مقهى حمدان، دون أن تشفع نداءات المثقفين، التى وصلت حد الاعتصام، في الحفاظ على هوية المقهى ومكانته، باعتباره يمثل جانبا من ذاكرة المدينة وتاريخها الشفوي.

كما أن انتشار ظاهرة "الكوفي شوب"، ومقاهي الإنترنت في أحياء العاصمة، بات يمثل تهديدا حقيقيا لاستمرار عمل المقاهي الشعبية، التي تنتشر في الغالب وسط المدينة القديمة، مما يجعلها تخضع للمساومة من جانب المستثمرين الذين يبحثون عن مكاتب جديدة في منطقة مكتظة بكل شيء.

ونادرا ما تجد في عمان، وخاصة في وسطها التجاري، مقهى ينشر كراسيه على مستوى الشارع، فمعظم تلك المقاهي موجودة في الطوابق العليا للعمارات، ومحظوظ من روادها من يجد لنفسه مكانا على الشرفة المطلة على الشارع التجاري،

وهي ظاهرة لم تستوقف الناس كثيرا، بسبب حرصهم على استغلال المحلات المنتشرة على الشوارع لأغراض تجارية.

وإذا كان وجود المرأة الأردنية في هذه المقاهي يثير دهشة الرواد وفضولهم، فإن وجود مجموعات متتالية من السائحات الأجنبيات صار طبيعيا في هذه المقاهي، التي ظلت محافظة على طابعها الذكوري، غير أن المرأة أخذت مكانها في مقاهي "الكوفي شوب" والإنترنت، أو مقاهي غرب العاصمة، ولم يعد وجودها أو وجود الأرجيلة إلى جانبها مثيرا للدهشة أو الاستغراب.

الغرباء الذين يجدون في مقاهي عمان مكانا لراحة مؤقتة، يجدون أنفسهم وسط رواد من مختلف الأعمار، يلعبون الورق والنرد ويحتسون المشروبات الساخنة والباردة، ويكركرون على الأرجيلة التي صارت لازمة من لوازم المقاهي بمختلف أنواعها.

عند الحديث عن مقاهي عمان، لا بد من التوقف عند ما يمكن تسميته بالمرحلة العراقية في حياة هذه المقاهي التي ازدهرت بروادها العراقيين الذين يحتل المقهى حيزا مهما في حياتهم اليومية، وصار طبيعيا وجود مثل هذه المقاهي في أحياء عمان الغربية التي استقطبت الكثير من العائلات العراقية.

مقاهي عمان الشعبية، عناوين للغرباء، وملاذ للمتقاعدين والعاطلين عن العمل، ومكان للقاء عاجل وسريع لعابرين في وسط المدينة المكتظ بفوضى المكان.

أدراج عمّـان

سلالم من اللبلاب الصخري

كان من الصعب على أبناء عمان وعشاقها، في منتصف الخمسينات من القرن الماضي مثلا، تصور مدينتهم بدون أدراج أو سلالم حجرية، حيث كانت الأدراج في تلك المرحلة إحدى روافع مدينة عمان الزاحفة بهدوء على سفوح جبالها السبعة، والمتسلقة نحو فضاء لا محدود من الإبهار العمراني، لكن أحياء عمان الغربية التي تشكلت لاحقا، قدمت صورة حديثة لمدينة تباهي الدنيا بنظافتها، سحبت من ذاكرة العمانيين وضيوفهم صورة تلك الأدراج التي غابت عن شوارع عريضة وبيوت عامرة بالحياة.

عمان، مدينة تقف على قدميها، هكذا يمكن وصف المدينة على لسان شاعر أو فنان، وهي المدينة التي انطلقت من محيط السيل العتيق الذي منح الحياة لبيوتها الأولى، قبل أن تتسلق سفوح الجبال المحيطة، وصارت جبال التاج والجوفة وعمان والحسين والقلعة واللويبدة والقصور وغيرها، أذرعا متعددة للمدينة التي بدأت تنمو في الاتجاهات كلها، كما هي شجرة اللبلاب المتدفقة بالحياة.

أكثر من عامل قاد إلى توسع عمان منذ منتصف عشرينات القرن الماضي، أي منذ أن حط فيها الأمير المؤسس رحاله ووعده، لتبدأ صورة المدينة تتغير كما يريد لها بناتها الأوائل، فتحولت مشفوعة بإرادة الحياة، من مجموعة بيوت طينية متناثرة على محيط السيل العتيق، إلى بيوت حديثة بدأت تتشكل من خلالها أحياء عامرة بالحياة في الاتجاهات الأربع، فالمدينة أصبحت عاصمة للإمارة الفتية، وصارت تستقطب المهاجرين الذين قصدوها من داخل البلاد وخارجها، وبدأت مؤسسات الدولة في النمو.

جبال وعرة صخرية تحيط بالسيل الذي ضاقت حوافه بأهل المدينة، لكن إرادة الحياة ظلت هي الأقوى، فانتصرت إرادة الإنسان ورغبته على قسوة الصخور الصماء، وانتصبت البيوت في كل مكان، لتصبح دائرة الحياة أكثر اتساعا، والصخور التي كانت عصية على الشوارع، طوعتها معاول العمانيين وإرادتهم المتشبثة بالحياة، وحولتها إلى أداراج مستقيمة أو متعرجة، انتشرت بهدوء في محيط مركز المدينة، حتى صارت بجمالها ورونقها المميز، علامة من علامات عمان الفارقة.

الأدراج في عمان، كما الشوارع، صارت لها أسماؤها أيضا، بعضها انتسب إلى عائلات تجاورها في السكن والإقامة، مثل درج الكلحة، وبعضها الآخر انتسب إلى مواقع أو مؤسسات معروفة للعامة تجاورها، مثل درج الاستقلال، ودرج المحكمة وغيرهما، لكن بلدية عمان في وقت مضى، ومن ثم أمانة العاصمة، والأمانة الكبرى لاحقا، ذهبت إلى إطلاق تسميات على هذه الأدراج، مثل الشوارع تماما، لتعريفها وبناء علاقة لها مع مستخدميها، وأحاطتها بالرعاية والاهتمام الواضحين، حيث أضيفت إلى بعضها حواجز حديدية "درابزين"، فيما أضيف لبعضها الآخر الإسمنت والبلاط، لتبدو أكثر تماسكا وجمالا وقدرة على مقاومة تقلبات الطقس والزمن.

أدراج عمان، وسائط نقل تختصر الزمن والجغرافية، وجدت لتصل وسط البلد، الذي يمثل مركز الحركة، بالجبال المحيطة، لكن المنظر صار مألوفا وأنت ترى درجا خارج هذه المناطق، ليؤدي الوظيفة ذاتها، وإذا كان الدوار الثالث في جبل عمان يمثل نهاية تلك الأدراج في المنطقة، فإن هذه السلالم الحجرية ما تزال تيسر سبل السير في جبال الحسين واللويبدة والجوفة والتاج وغيرها.

وربما كانت وظيفة هذه الأدراج تتشابه في علاقتها مع مستخدميها، لكن مناظرها وحجمها واستخدام الناس لها، بات يختلف بين درج وآخر، فهناك أدراج باتجاهين، فيما غيرها ظلت ضيقة وباتجاه واحد، غير أن الأغنياء والفقراء، أبناء المدينة

وضيوفها، النساء والرجال، ظلوا يستخدمون هذه الأدراج، مثلما يستخدمون الشوارع العريضة.

يقول بعض العمانيين إن درج المحكمة الشرعية، على سبيل المثال، يملك تاريخا متناقضا في علاقته الإنسانية التي اكتسبها مع المواطنين على مدار العقود الماضية، فعلى درجاته تقافزت أقدام فرحة في طريقها إلى القاضي، لعقد قرانها وتحقيق حلم حياتها، وسارت عليه أقدام متثاقلة أيضا، وهي تخرج من مكتب القاضي نفسه، منهية حياتها الزوجية بالطلاق.

المتسكعون والعشاق، النساء والرجال والأطفال، أصحاب البيوت والمحلات ومستأجروها، استقبلتهم تلك الأدراج التي تظل شامة مميزة على جبين عمان العتيقة، دون أن ترافقها أية شكوى أو أنين.

تقول الأغنية "غص الدرج نزلت دموع الباب"، لكن العمانيين الذين ارتبطوا بعلاقة حميمة مع الدرج، وتآلفوا معه في يومياتهم، يدركون جيدا أن أدراج مدينتهم "لا تغص" بسالكيها، المسرورين منهم أو المهمومين، وتحولت الأدراج إلى صورة حميمة من صور عمان التي لم نعد نراها في أحيائها الغربية الحديثة.

وتقول أغنية أخرى "زحلق حبيبي ع الدرج ووقعت أنا"، غير أن أدراج عمان التي تستقبل العشاق وتحتضنهم باستمرار، توفر لهم الهدوء والطمأنينة واليد الحانية، فلا "يزحلقون"، وكأن مهمتها أن تبعد الضرر عن العاشق والمعشوق معا.

منذ سنوات بعيدة انتبهت أمانة عمان الكبرى إلى أهمية الأدراج في التراث المعماري للعاصمة، فأحاطتها بكثير من العناية مع المحافظة على صورتها التراثية والمعمارية التي سكنت ذاكرة أبناء المدينة وضيوفها على حد سواء، وهي صورة قد لا تتوفر في أية مدينة أخرى.

العمانيون الأوائل، (آباءً وأجدادا)، كانوا يعرفون الوظيفة الاجتماعية للدرج، فيحرصون على بنائه مجتمعين، بسواعدهم ومعاولهم وما توفر لديهم من "بارود"

بدائي لتفتيت الصخور القاسية، أما العمانيون الأبناء فقد غابت هذه الوظيفة عن اهتمامهم، وهم يستندون إلى آليات ضخمة وحديثة، تعيد صياغة قسوة الطبيعة بما يخدم الحياة المعاصرة.

عمّـان في الليل
وقار فائض وشوارع عريضة

عمان مدينة تنام مبكرا، عبارة يرددها العمانيون في سياق مقارنة حياة مدينتهم بحياة غيرها من المدن والعواصم العربية، وهم يتطلعون إلى حياة مختلفة في ليل يميل في العادة إلى الهدوء، وينفض عن كاهل المتعبين غبار يوم طويل من العمل، ففي ساعات الليل الأولى، تبدأ المحال التجارية بإسدال أبوابها، معلنة وقف النشاط العام، لتعود الحركة في معظم أحياء العاصمة وشوارعها إلى هدوئها المعتاد.

عمان مدينة لا تحب السهر الطويل، فباستثناء عدد من المقاهي والمطاعم والمحال متنوعة الاختصاص في مناطق متفرقة، فإن كثيرا من محلات عمان ومكاتبها تغلق أبوابها مبكرا، لتبدأ حياتها العملية منذ ساعات الصباح الأولى، في صورة يمكن وصف عمان بأنها مدينة نهارية بامتياز.

وباستثناء الليالي التي تسبق موسم الأعياد الدينية، أو المناسبات الاجتماعية، فإن عمان مدينة لا تنتمي لقائمة المدن الساهرة، خاصة في ليالي الشتاء، وإن حاولت بعض محلاتها كسر هذه العادة لتبقي أبوابها مفتوحة إلى ساعة متأخرة، لكن ذلك لا يمثل قاعدة حسب كثير من أبناء عمان الذين باتوا يعرفون جيدا أسماء المحلات التي لا تغلق أبوابها، وعناوينها الواضحة في أحياء عمان.

في ليالي الصيف، وفي الليالي الدافئة عموما، فإن شوارع عمان تشهد حركة سير مزدحمة في ساعات المساء الأولى، حين تغادر عائلات كثيرة منازلها للتجوال في شوارع العاصمة، لكن ذلك لا يحدث في ليال كثيرة في فصول السنة المختلفة، لأن

عمان تبدأ بلملمة أشيائها مبكرا، منذ أن يرخي الليل سدوله على المكان، فتخف الحركة في الشوارع، وتعود الأرصفة إلى صورتها الطبيعية، فيما تبدو صور الشوارع، وخاصة في وسط البلد، صورا مغلفة بالوقار الذي صبغ ليالي العاصمة منذ سنوات بعيدة، ربما بحكم التركيبة الاجتماعية التي تتميز بها عمان.

شوارع عمان، في شرقها وغربها، التي تضيق بحركة السيارات في نهارات مزدحمة أكثر مما يجب، تبدو أكثر اتساعا في الليل، وأكثر انسيابا في شرايين المدينة التي يظل قلبها نابضا بالحياة.

في كثير من أحياء عمان، وخاصة في ليالي شهر رمضان المبارك، تبدو المقاهي المنتشرة في معظم أحياء العاصمة، هي النوافذ المضاءة في الليل الطويل، تعيش على كركرات الأرجيلة وضربات طاولة الزهر وأصوات المنفعلين في لعب الورق، في سهراتهم الاستثنائية التي تمتد إلى ساعات متأخرة، لتعود هذه المقاهي بعد انتهاء ليالي الشهر الفضيل، إلى نظام حياتها الأول في علاقاته بليل عمان قصير الحركة.

الحياة التي تبدو على أشد حركتها داخل المنازل العامرة، لا تشبه حياة الشوارع القريبة والبعيدة التي يغادرها الصخب المعتاد، ليكون ليل عمان ليلا طويلا خارج أبواب منازلها، وليلا عائليا جميلا في بيوت اعتادت الميل إلى الهدوء مبكرا.

وفي ليل المدينة الهادئ، تبدو أرصفة الشوارع أكثر اتساعا من المعتاد، حين يغادرها الباعة المتجولون والبسطات العشوائية، ليسلكها العابرون بهدوء، وهم ذاهبون إلى رسم علاقة حميمة مع ليل موغل بالصمت الظاهر في مدينة نسجت علاقة استثنائية مع النهارات المشمسة، التي تجعل من عمان رئة الوطن العامرة بهواء نقي، وقلبا ينبض في كل الاتجاهات.

ربما سيارات الأجرة، التي تبحث في الشوارع والأحياء عن عابرين كسروا تقاليد حياة ليل عمان، هي الأكثر حراكا في شوارع تآلفت مع السكون، في لحظة

غزل لا تتوقف مع ضوء القمر الذي غيبته الكهرباء عن ليالي أبناء المدينة وسمرهم الذي كان.

عمان في الليل، هي غيرها في النهار، هي مدينة أكثر وقارا، وأكثر هدوءا، وأقل ضجيجا، وأكثر إقبالا على إكمال صورة مزدانة بجمال الروح، الذي تتميز به عاصمة الجبال الشامخة.

في ليالي المطر، تبدو عمان أكثر انغلاقا على نفسها من الليالي الأخرى، ويذهب المطر إلى غسل أرواح الناس، تماما مثل ما يغسل واجهات بيوت المدينة وشوارعها وأرصفتها، ليمنح المطر شرايين عمان وعدا بتجديد علاقتها بالحياة الهادئة المطمئنة، وهي صورة لا تتوفر في كثير من مدن العالم، حين ترسل الجبال ما تجمع من مطر الحياة في جوانبها، إلى قاع المدينة الذي يتسع للمطر الفائض، ولحركة المواطنين، ولمساحات غير منظورة من التشبث بتراث الزمان والمكان.

أسواق عمّـان

البخارية

قبل أن يشاركه المكان نفسه زملاؤه من التجار الأوائل القـادمين مـن بخـارى، لـم يكن يعتقد الشاب الأذري كمال الـدين البخـاري، وهـو يضـع بضـاعته المختلفـة ذات يوم بعيد في ساحة المسجد الحسيني، أنه يؤسس لواحدة من أشـهر الأسـواق الشـعبية في عمان، السوق التي حملت اسم (البخارية).

تقول الرواية الشفوية المتداولة إن كمال الدين الـذي رافـق في رحلتـه الأولـى إلـى عمـان، قوافـل طريـق الحريـر، جـاء محمـلا بالبضـائع التـي لـم تكـن متـوفرة آنـذاك في أسواق عمان، وكان طبيعيا أن تستهوي تلك البضـائع أبنـاء عمـان وأبنـاء القبائـل التـي تستوطن أطرافهـا، فاختـار سـاحة المسـجد الحسـيني الكبيـر، باعتبارهـا قلـب المدينـة ونقطة استقطاب المواطنين، لعرض بضاعته فيها، واضعا إشـارة البدايـة لهـذه السـوق عام ١٩٣٠، لتصبح البراكية المتواضعة التي نصبها في ذلك العام، نـواة لسـوق كبيـرة، بدأت تتسع شيئا فشيئا، لتأخذ ملامحهـا الحقيقيـة عـام ١٩٤٢، بعـد أن فصـل الشـارع العريض الذي تم توسيعه بين ساحة المسجد والسوق المزدهرة ببضاعتها وزبائنها.

قوافل عديدة سلكت بعـد ذلـك التـاريخ طريـق الحريـر جيئـة وذهابـا، وقـد عـرف أصحاب تلك القوافـل حاجـة أبنـاء عمـان وضـيوفها، ونوعيـة البضـائع التـي تسـتهوي الزبائن الذين يبحثـون عـن الجديـد، فبـدأت السـوق ببضـائعها تكبـر تـدريجيا، إلـى أن تحولت سوق البخارية إلى ظاهرة عمانية لا تشبه غيرها.

وتؤكد الرواية أيضا أن العباءات المقصبة، ومختلف أنواع الأنتيكات والعطور، كانت تفرض حضورها على محلات سوق البخارية، وتستقطب عيون الزبائن من كل الشرائح الاجتماعية.

تجار عمان في ذلك الوقت، أدركوا أهمية هذه السوق، وقرأوا صفحات مستقبلها، فذهبوا لإقامة محلات تجارية حديثة ومتطورة بدل تلك البراكيات البدائية، على الأرض التي كان يملكها فوزي المفتي، ومع أن تجارا آخرين، من مختلف المنابت والأصول، امتلكوا محلات في هذه السوق، وخاصة بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، إلا أن السوق حافظت على تسميتها العتيقة التي رسخت في ذاكرة العمانيين منذ السنوات الأولى لتأسيس الإمارة.

منعطف هام عاشته السوق، ببضاعتها وتجارها وزبائنها، في أربعينات القرن الماضي، هذا المنعطف تمثل في الزيارات المتكررة التي كان يقوم بها الملك المؤسس عبد الله الأول لسوق البخارية، والتجول فيها والوقوف على حاجة تجارها، وتحديدا بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، التي كان يحرص على أدائها في المسجد الحسيني الكبير، مع كبار مسؤولي الدولة، وتشير الرواية المتداولة أيضا، أن تجار السوق كانوا يستعدون لتلك الزيارة قبل موعدها، فيحرصون على توفير كل أنواع البضاعة التي قد يحتاجها الملك المؤسس أو مستشاروه والعاملون في حكومته، وكان يوم الجمعة أكثر الأيام حراكا في أجواء السوق، بسبب قدوم أعداد كبيرة من المصلين من خارج محيط وسط البلد، أي من أطرافها البعيدة، لأداء صلاة الجمعة بمعية الملك المؤسس، وكان طبيعيا أن يمثل ذلك حالة انتعاش للسوق وترويج لبضاعتها.

ويتحدث قدامى التجار أيضا، أن قائد الجيش، الجنرال البريطاني كلوب باشا، كان يبعث باحتياجاته مكتوبة على ورقة بيد أحد مرافقيه، ويقوم التجار بعد ذلك بتجهيز (الطلبية)، وإرسالها إلى مقره الرسمي.

ما تزال صورة ذلك الشاب الأذري وسيرته، (كمال الدين البخاري)، تفرض حضورها على ذاكرة المكان وذاكرة رواده، خاصة أولئك الذين عاشوا مراحل تطور سوق البخارية منذ عقود مضت، إلى ما وصلت عليه اليوم.

واجهات محلات السوق، ووجوه أصحابها وأنواع البضاعة المعروضة فيها وطبيعة الزبائن، تختلف بين الأمس واليوم، هكذا تبدو الصورة للباحثين في الدفاتر العتيقة، لكن حبلا سريا غير مرئي من العلاقة بين الماضي البعيد والحاضر المعاش، يؤكد أن السوق ما زالت تحمل سمات اختلافها عن الأسواق الأخرى، إلى درجة أن بعض الأسواق العصرية ذهبت إلى تقليد وظيفة سوق البخارية، لكن ذلك لم يسحب من السوق تميزها وتفرد بضاعتها وأجواءها الخاصة وزبائنها الباحثين عن بضاعة مختلفة.

طاولات الزهر والمسابح والأراجيل والنحاسيات والعباءات والساعات، وكثير من أنواع الأنتيكات والعطور، من مختلف المناشئ، ما تزال تقدم نفسها للزبائن، إلى درجة أن عددا كبيرا ممن يؤدون مناسك الحج والعمرة من الأردنيين، يقومون بشراء بعض هداياهم المفترض إحضارها من مكة المكرمة والمدينة المنورة، من هذه السوق العامرة بكل ما تشتهيه نفوس الزبائن.

قليلة هي الأسواق الشعبية التي نمت وتطورت مع نمو عمان وتطورها، وحافظت على تسميتها الأولى ووظيفتها العتيقة، ومن بين أبرز هذه الأسواق، سوق البخارية، التي يجد فيها الزبائن من البضائع ما هو غير متوفر في غيرها من الأسواق التي اجتاحتها الحداثة، وخضعت لاشتراطات التكنولوجيا والعولمة الصماء.

في أجواء السوق تشعر بنبض مختلف للحياة، وترى وجوها من مختلف بلدان الدنيا، وزبائن يتفاوتون في مستوياتهم الاجتماعية والطبقية، لكن كل هؤلاء يجدون ضالتهم من البضاعة، حتى لو كانت (لبن العصفورة)، كما تقول الرواية الشفوية التي تنحاز للمبالغة في توصيف وظيفة السوق ودورها في الحياة الاجتماعية لعمان.

في تموز ٢٠٠٩ التهمت النيران جانبا من سوق البخارية، وجاءت على كثير من بضاعتها وملامحها العتيقة، لكن إرادة القائمين عليها، بدعم من مؤسسات الدولة، قامت بإعادة ما أكلته النيران، لتعود السوق إلى سابق عهدها ووظيفتها الاقتصادية والاجتماعية.

اليمنية

يتذكر زبائن سوق اليمنية وتجارها القدامى، ذلك الحريق الهائل الذي شب في السوق عام ١٩٥٦، وأتى على المحلات بما فيها من بضائع، وتركها رمادا وأعمدة من دخان.

الحريق الذي صار حديث العاصمة في تلك الأيام، استدعى حضور الملك الراحل الحسين، وإشرافه بشكل مباشر على عمليات الإطفاء، التي شاركت فيها سيارات الإطفاء التابعة للجيش البريطاني في ذلك الوقت.

الروايات التي تحدثت عن الحريق قالت، إن خطأ غير مقصود ارتكبه عامل هندي، كان يعمل "مكوجيا" في أحد المحلات المتخصصة ببيع الملابس المستعملة، حين أحرقت مكواته قطعة ملابس، الأمر الذي أدى إلى اشتعال النيران في تلك السوق، التي تعد واحدة من أقدم أسواق عمان التي ما تزال تحتفظ بوظيفتها حتى اليوم.

التسمية الشعبية في توصيف السوق والتعريف بها، فرضت نفسها على العمانيين وضيوف المدينة وزوارها، فصار اسم "سوق اليمنية"، ملتصقا بالمكان، حيث تؤكد الروايات أن عددا من الأشقاء اليمنيين الذين رافقوا طلائع جيش الثورة العربية الكبرى، بقيادة الملك المؤسس إلى عمان مطلع عشرينات القرن الماضي، هم وأبناؤهم، كانوا أول من اتخذ من ذلك المكان الواقع بين جسر الحمام والمسجد الحسيني، بموازاة سيل عمان وبمواجهة "البخارية"، سوقا لبيع بضاعتهم من الملابس والأحذية المستعملة، التي كان يتم الحصول عليها بالقنطار من الجيش البريطاني أول الأمر، ولاقت رواجا

لافتا في تلك الفترة، وهذا ما دفع وصفي باشا ميرزا صاحب الأرض التي احتضنت تلك السوق، للتفكير بتنظيم العمل من خلال بناء سوق تكون مركزا تجاريا مهما في عمان، التي بدأت تتوسع في وظيفتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك المرحلة، فتم ذلك عام ١٩٤٨، العام الذي شهد هجرة أعداد كبيرة من الفلسطينيين إثر النكبة -كما تشير الروايات المتداولة-، وضمت السوق محلات عديدة لبيع الملابس والأحذية المستعملة، ومحلات أخرى لبيع دخان "الهيشي"، ومحلات غيرها للحلاقة وهكذا، وقد تميزت تلك المحلات بطريقة بنائها البدائية التي كانت عبارة عن "براكيات" خشبية مسقوفة بجذوع الأشجار، الأمر الذي جعل منها مادة سهلة الاشتعال في ذلك الحريق الذي تحدثت عن هول نتائجه المدينة بكاملها.

وتضيف الرواية أن تجار السوق الذين لحقت بهم خسائر كبيرة، وبعد أن خمدت نيران الحريق، اجتمعوا مع صاحب الأرض وصفي باشا ميرزا، وتفاوضوا حول الطريقة الأفضل لإعادة بناء السوق الشعبية، وإعادته لممارسة وظيفتها التجارية، وتوصلوا مع الباشا أن يقوم كل تاجر منهم ببناء محله على حسابه الخاص، في وقت يلتزم فيه الباشا بالمحافظة على الأجرة القديمة، التي لم تكن تتجاوز في الغالب الدينار ونصف الدينار شهريا، كأجرة للمحل الواحد، وهكذا عادت تلك المحلات لاستقبال زبائنها القادمين من أطراف العاصمة وخارجها، بحثا عن حاجتهم من تلك البضاعة التي لا تتوفر إلا في سوق اليمنية.

باشوات وشيوخ عشائر ووجهاء وموظفون كبار في أجهزة الدولة ومؤسساتها، كانوا يترددون على السوق، وصاروا زبائن دائمين لمحلات بيع الملابس والأحذية المستعملة، أو دخان الهيشي، أو صالونات الحلاقة المعروفة بكراسي القش الصغيرة التي غالبا ما كان الحلاق فيها يمارس وظيفة الطبيب الشعبي، إلى جانب مهنته، ورواياته التي لا تتوقف عن حال المدينة وأهلها.

ليس مهما إذا كان أصحاب المحلات الكثيرة في السوق التي احتفظت بمكانها ووظيفتها الاجتماعية والاقتصادية، ينتسبون إلى أولئك الآباء والأجداد اليمنيين الذين فرشوا بضاعتهم الأولى هناك على حافة السيل الذي كان سمة بارزة من سمات عمان، قريبا من نداء الله أكبر، وهو يتردد من الجامع الذي منح المنطقة مبررات حركتها ونشاطها، لكن المهم أن بصمات أولئك الرواد، ما تزال حاضرة في نشاط السوق التي حملت اسمهم، في صورة واضحة لعمان العتيقة التي ظلت حاضنة للأشقاء العرب من كل المنابت والأصول.

المنطقة المحيطة بسوق اليمنية، هي اليوم قلب العاصمة النابض بالحركة والنشاط، وفي رؤية الشعراء وفلسفتهم، هي المنطقة الوحيدة المختلفة، بالمقارنة مع مناطق عمان الأخرى التي تتشابه إلى حد كبير بشوارعها وطرق معمار بيوتها، ليظل وسط البلد، والأسواق التي تفتح أبوابها للشمس كل صباح، على علاقة وثيقة بالعمانيين، من مختلف الشرائح الاجتماعية، ففي هذا الوسط المتحرك يسير الوزير والخفير، ويتردد على أسواقه الأغنياء والفقراء، أبناء المدينة وضيوفها، من الرجال والنساء والفتيان، وكل يبحث عن ضالته في محلات لم تكسر أقفالها السنين المتراكمة، والإرث الذي صار واحدا من علاماتها الفارقة.

تبدلت وجوه الزبائن وأصحاب المحلات، لكن وظيفة السوق لم تتغير، وهي تكاد تكون متخصصة ببيع الملابس المستعملة، لكن محلات أخرى فتحت أبوابها لمهن مغايرة، لا تتقاطع مع مهنة السوق المعروفة، بل تقدمها للزبائن بصورة جديدة، فيها من التنوع الذي يفتح فضاء المحلات على اهتمامات الزبائن الذين يبحثون عن بضاعة مختلفة.

وظيفة السوق التجارية والاقتصادبة ارتبطت بتجارة البالة، أو الملابس الأوروبية المستعملة، التي هي أسماء عديدة لمسمى واحد، بات اليوم منتشرا في أسواق عمان

وغيرها من المدن الأخرى، في محلات صارت متخصصة ببيع هذا النوع من البضاعة، حيث يأتي إليها المواطنون من كل مناطق العاصمة، رغم أن بعض هذه المحلات انتقلت بدورها إلى الأحياء السكنية، لتكون قريبة من المواطنين، ولتوفر عليهم مشقة الذهاب إلى السوق.

الجورة

ربما تجد فيها ما تعجز في الحصول عليه في أسواق أكثر هيبة وحداثة واتزانا، فالجورة التي صعدت ببضاعتها إلى مستوى سطح الأرض، تضم في أحشائها بضائع متفاوتة في المنشأ والجودة والسعر والصلاحية، ويكاد المغرمون بالبحث عن "لقطة" نادرة، أو بضاعة مفقودة، يلتقون دون موعد مسبق هناك في سقف السيل، في المساحة التي أطلق عليها "اللسان الشعبي" الجورة، بسبب انخفاضها عن مستوى الشارع، لتصبح مع مرور الأيام، وازدياد عدد روادها، واحدة من أشهر الأسواق الشعبية في عمان، ويصبح لاسمها دلالته الخاصة في أذهان العمانيين.

ليس كل ما يعرض في هذه الجورة من بضائع يملك "شرعيته"، يقول شاب يتردد على المكان باستمرار، حتى أصبح مصطلح "سوق الحرامية"، قريبا أو مرادفا لهذا المكان، الذي كثيرا ما شهد مطاردات بين عناصر الأجهزة الأمنية ومروجي البضائع المشكوك بشرعيتها، لكنها ظلت مركزا لاستقطاب الزبائن من كل الأعمار.

اللسان الشعبي، أضاف أيضا توصيفات أخرى لهذا المكان، الذي يبدو مكتظا أيام الجمع أكثر من الأيام الأخرى، فصارت "الجورة لينك"، في إشارة إلى توفر ما يعز العثور عليه في أماكن أخرى من الأجهزة الخلوية وملحقاتها، من مختلف الماركات والأجيال، غير أن شابا آخر يعرف الكثير من أسرار الجورة، يحذر من شراء مثل هذه الأجهزة، لأكثر من سبب، منها الشك بعائديتها وعدم شرعية اقتنائها، مما قد يعرض من يشتريها للمساءلة القانونية، وكذلك الشك بجودتها التي قد تكون "مضروبة"، ولا مجال لإخضاعها للفحص الدقيق.

الجورة، صورة خلفية لحياة عمان التجارية، ففيها تجد الأجهزة الكهربائية وقطع الأثاث والسجاد، وكل ما يمكن أن يخطر للمشتري على بال، الذي يجد أمامه بضاعة أميركية وأوروبية وآسيوية وعربية، لكن إغراءات الأسعار التي تبدو أقل كثيرا مما يجب، تمنع الراغبين بالشراء من السؤال عن مصدر تلك البضاعة وعائديتها، ومثلما يكون البائع في عجلة من أمره، للتخلص من بضاعته، فإن هذه العدوى تنتقل للمشتري الذي يريد أن يغادر مع بضاعته المكان بأقصى سرعة، لانعدام أي نوع من الضمانات المتعارف عليها بين طرفي العملية.

للجورة طقوسها وأجواؤها الخاصة، ولها منظومتها الفريدة في عمليات البيع والشراء، هذه المنظومة فرضتها نوعية البضاعة والسرعة في إبرام الصفقات، لأن البائعين والمشترين في الغالب، يعرفون أن هناك حلقة مفقودة في سلسلة التعامل في حدود الجورة التي تملك قدرة غير منظورة في استقطاب الزبائن والزائرين، من مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية، لكن المتعاملين الدائمين مع هذه الجورة، بيعا وشراءً، يقولون، إن أجواء القلق والتوتر هي السائدة في المكان، وهي التي تفرض أجندتها على سلوك المتعاملين، غير أنهم يستغربون ما يشاع عن نوعية البضاعة المتداولة بأنها جميعها "مسروقة"، مشيرين إلى أن كثيرا من الزبائن يأتون إلى هذا المكان، لبيع بضاعة تخصهم، ويملكون من الوثائق ما يؤكد عائدية تلك البضاعة لهم، إلا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر، أن هناك بضاعة كثيرة مجهولة الهوية، وهذا أعطى للخيال الشعبي تقديم توصيفات عديدة لدور الجورة ووظيفتها التجارية والاجتماعية.

لكن الواضح أن أبواب الجورة غير المرئية، تنفتح على مصاريعها حين تغلق معظم الأسواق أبوابها، لتدخل منها بضاعة مختلفة، تتلقفها بيعا وشراءً أيد مختلفة أيضا، تتميز بالسرعة والغموض والقلق الذي لا يغادر الوجوه والمكان معا.

الفضول قد يقود عددا كبيرا من المواطنين إلى ذلك المكان الذي لا يشبه غيره في عمان، بل في الأردن، ويقول أحد الظرفاء، إنك تستطيع الحصول على كل ما تريده من الجورة، في إشارة لتنوع البضاعة المعروضة للبيع في مكان مهدد بالمطاردة من قبل الأجهزة الرقابية.

الجورة التي تحتل حيزا مهما في منطقة تجارية مكتظة، يأتي إليها المواطنون من كل أطراف العاصمة وخارجها، تعود ملكيتها لوزارة الأوقاف، التي يقول عاملون فيها، إن الشخص الذي استأجر المكان، خالف شروط العقد، فالمكان مخصص لوقوف السيارات، لكنه تحول، من وراء ظهر المالك الأصلي، إلى مايشبه "البازار" الجامع لكل أنواع البضاعة التي تغري الزائرين بالشراء.

في الجورة تشتبك الماركات الأصلية بالماركات المزورة، وتتجاور البضاعة اليابانية مع البضاعة الكورية والصينية، وفي كل الأحوال تقدم الجورة لزبائنها بضاعة رخيصة، بغض النظر عن جودتها، ويظل رواد هذا المكان غرباء يقظين، عين على بضاعتهم، وعين أخرى على زوار قد يقطعون عليهم لحظة إبرام صفقة صغيرة.

في كثير من مدن العالم، هناك أسواق تشبه الجورة في وظيفتها وزبائنها ونوعية بضاعتها، لكن السؤال الذي يراود الذين يعتبرون الجورة جزءا من اهتمامهم الشخصي والمعيشي يقول، هل سيأتي يوم يتم فيه تنظيم العمل بالجورة وما يشبهها من الأسواق الشعبية، أم أن ذاكرة العمانيين وعيونهم ستكون مضطرة لوداع هذا المكان المختلف، الذي يثير من الأسئلة الإشكالية ما يربك المشهد العام، خاصة وأن عاملين في وزارة الأوقاف يؤكدون أن المرحلة المقبلة ستشهد ارتفاع جدران مجمع تجاري كبير في أحشاء الجورة، المفترض أن تقدم نوعا من الخدمة والبضاعة المختلفة، عما هو قائم اليوم.

شوارع عمّـان

شارع مكة: عمّـان في صورتها الأخرى

رويدك، فأنت في شارع مكة، جملة في صيغة نداء قد تأتيك وأنت تحاول ارتياد هذا الشارع، أو العبور منه، فقد تحول في السنوات الأخيرة إلى واحد من أبرز معالم العاصمة عمان، وصار اسم الشارع ووظيفته التجارية والاجتماعية عوامل جذب لأبناء عمان الراغبين في رؤية صورة مختلفة لحياة مدينتهم.

شارع طويل، يمتد من محيط الدوار الخامس ليتقاطع في نهايته مع شارع الملك عبد الله الثاني، أو ما تعرفه العامة باسم شارع المدينة الطبية، وفي المسافة التي تمتد طويلا، يتقاطع الشارع مع شوارع رئيسة أخرى في غرب العاصمة، فشارع مكة يتقاطع مع شارع المدينة المنورة عند دوار الحرمين، وهي أسماء تحمل دلالاتها الإيحائية والتاريخية في وجدان الأردنيين بشكل خاص، وفي وجدان العرب والمسلمين بشكل عام، لكن الاسم المتدوال لدوار الحرمين هو دوار الكيلو، وهي حالة لا ترتبط بهذا الدوار وحده، بل تنطبق على عدد ليس قليلا من دواوير عمان ومواقعها وشوارعها أيضا، حين تتغلب التسمية الشعبية على التسمية الرسمية في التداول اليومي.

وعلى مسافة ليست بعيدة من دوار الكيلو، يتقاطع الشارع عند ما بات يعرف بمجمع جبر التجاري مع شارع عبد الله غوشة، وقد حمل التقاطع سمته المميزة، بعد إنجاز تطوير كبير على التقاطع لتسهيل حركة المرور، فارتفع جسر وهبط نفق، في

منطقة ربما تكون الأكثر ازدحاما في جغرافيا الشارع الذي يعد واحدا من أطول شوارع عمان.

يمكن القول إن شارع مكة ليس شارعا شعبيا، إذا ما تم اعتماد التسمية على حركة المشاة، فغالبا ما تخلو أرصفة الشارع من المارة، باستثناء المنطقة المحيطة بمجمع جبر التجاري، لكن الشارع الذي تصلح له تسمية أخرى هو "شارع المعارض"، يضم على جانبيه عشرات المعارض التجارية التي تبيع السيارات من مختلف المناشئ والموديلات، وصارت هذه المعارض علامة فارقة لهذا الشارع الذي يقدم نفسه على أنه أحد أبرز شوارع عمان التجارية.

مؤسسات عديدة تنتشر على جانبي الشارع، ربما كانت مؤسسة الضمان الاجتماعي أشهرها، وقبل انتهاء الشارع من جهة الغرب، يقع واحد من أبرز المعالم التجارية في العاصمة، "مكة مول"، الذي يضم مجمعا تجاريا ضخما يستقطب المتسوقين والمتفرجين من مختلف أحياء العاصمة وشرائحها الاجتماعية.

ويضم الشارع كذلك مؤسسات إعلامية عديدة، من بينها جريدة الغد، وأسبوعية المجد، وعدد من مكاتب القنوات الفضائية، وغيرها من وسائل الإعلام التي وجدت في الشارع فضاءً لحركتها بعيدا عن الازدحام الذي لا يتوقف في شوارع عمان الأخرى.

وإذا كان الاسم الرسمي للشارع هو "شارع مكة المكرمة"، فإن التسمية الشعبية ذهبت إلى اختصاره بشارع مكة، وهو اختصار لم يلق اعتراضا عليه، وصارت وسائل الإعلام والأوراق الرسمية تتعامل معه بالاسم المختصر، وعلى جانبيه تقع مجموعة من المطاعم والمقاهي المنتمية لسلسلة عالمية، وقد نجحت في استقطاب زبائن من كلا الجنسين، ومن عائلات بكامل أفرادها تذهب للبحث عن لحظة راحة.

"مكة مول" لم يعد معلما من معالم الشارع فقط، بل تحول إلى معلم من معالم عمان، بسبب ما يتميز به من دور ووظيفة تجارية وسياحية، بدأت تستقطب بقوة أبناء عمان وضيوفها بسبب الخدمة التي يوفرها لزبائنه، وبسبب حركة الشارع التجارية فقد أصبح عنوانا لرجال الأعمال والشركات الكبرى التي ترى في الأردن بيئة استثمارية خصبة وأمينة.

شارع مكة، شارع يختلف في وظيفته الاجتماعية عن شوارع كثيرة في العاصمة، فهو أقرب إلى الأرستقراطية التجارية، وعندما يذكر اسم الشارع تذكر معه حالة مختلفة وظواهر لا تستقيم أمام حركة المواطنين التي لا تتوقف في شوارع أخرى.

الجاردنز
شارع بوظائف متعددة

يظل اسمه في السجلات الرسمية "شارع الشهيد وصفي التل"، لكن اللسان الشعبي يتعامل معه باعتباره "الجاردنز"، نسبة لذلك "المحل" الذي كان قائما فيه منذ سنوات بعيدة يحمل الاسم نفسه، وفي تعامل المواطنين اليومي فإن هذا الشارع الممتد من قبالة السيفوي إلى دوار الواحة، وربما أبعد، هو شارع بوظائف متعددة، قد يحتوي على كل ما يحتاجه مرتادوه.

مطاعم ومقاهٍ ومحلات تجارية ومكاتب عقارية وعيادات ومحلات صرافة، ومقرات صحف ومواقع إلكترونية، وشقق سكنية ومكاتب تجارية وغيرها، كل ذلك في شارع لا تتوقف فيه الحركة، وهو يرخي بهدوء أرصفته لأقدام العابرين، مثلما يفتح مساحته كاملة لحركة السيارات جيئة وذهابا.

في السنوات القليلة الماضية انتشرت المقاهي في الشارع الذي كان يبدو منغلقا في ظاهره، وصارت مقاهي الجاردنز من أكثر مقاهي العاصمة ازدحاما على مدار ساعات النهار، وجزء كبير من ساعات الليل، ربما تبدأ بمقهى حمدان وتنتهي بمقهى الفوانيس، وبينهما الشلال والرايق وبيت القمح، وغيرها من المقاهي التي تكتظ بزبائنها من أبناء المدينة وضيوفها المقيمين.

الكلية العربية، إحدى أقدم كليات المجتمع في العاصمة، ونادي الجزيرة بما يحمله من عراقة السنين والإنجازات الرياضية، ومطعم جبري، فيما تستريح وزارة

الثقافة ودائرة قاضي القضاة على أطراف الشارع الذي يتمسك بحداثته، رغم ميله الخجول إلى الطابع الشعبي في بعض طقوسه وممارسات رواده.

عمارات شاهقة، تمتلئ مساحاتها بحركة الناس، في وقت يربض فيه السيرك الروسي منذ سنوات على مساحة ما تزال بعيدة عن تزاوج الحديد بالإسمنت.

واحد من أبرز معالم حي تلاع العلي، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، في وقت يتعامل معه عشاقه على أنه واحد من أبرز شوارع العاصمة التجارية.

لافتات كثيرة تنتشر على جانبي الشارع، تشير إلى أن اسمه "وصفي التل"، لكن اللسان الشعبي سرق من الشارع اسمه الرسمي، تماما مثلما سرق من شوارع ودواوير أخرى أسماءها الرسمية.

مطاعم متفاوتة في عدد نجومها، وفنادق لا ترتقي إلى صف النجوم العالية، لكن عشاق الشارع ومرتاديه يعرفون أن الحياة ممكنة بكل صيغها في هذا الشارع الممتد كنهر لا يتوقف جريان الناس والسيارت فيه، وصارت مقاهيه المتعددة أمكنة جذب للفنانين والمثقفين ورجال الأعمال والعشاق القادمين من جهات العاصمة الأربع، فهي مقاهٍ لا يبدو الاختلاط فيها غريبا، وصار طبيعيا رؤية الفتيات وحدهن، أو رؤيتهن برفقة رجال وسط ضجيج لا يتوقف.

في شارع الجاردنز تأخذ المدينة صورتها العامرة بالحركة والحياة، ويبدو الشارع خليطا بين الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، غير أن التآلف الذي يعيشه الشارع يشير إلى اشتباك المراحل والاتجاهات، في عاصمة منحازة للحياة، ليظل هذا الشارع الأنيق واحدا من صور عمان الزاهية بضحكتها، وعبورها الواثق نحو غدها الأكثر جمالا.

شارع طلال
نبض الحياة العتيقة

تغيرت وظائف كثير من المحلات التجارية المنتشرة على جانبيه، لكن وظيفة شارع الملك طلال لم تتغير، وظل يقدم لقاع المدينة شيئا من ملامحه العتيقة، منتميا إلى زمن بعيد، كانت فيه عمان تلملم أطرافها بهدوء.

واحد من أقدم شوارع العاصمة، وواحد من أطول شوارعها العامرة بالحياة، منذ كان اسمه في تلك الأيام البعيدة، "شارع المهاجرين"، لقربه من حي المهاجرين الشراكسة، حين كانت عمان تبدو قرية صغيرة.

من أطراف الجامع الحسيني إلى أطراف مبنى أمانة عمان الكبرى، مسافة تنبض بالحياة على مدار ساعات اليوم، وجزء من ساعات الليل، ففي أيامه البعيدة كان شارع المهاجرين محطة لبيع "الحلال" القادم مع أصحابه من أطراف عمان، وانتشرت على جنباته محلات لبيع الفرو والسلاح وكثير من المواد التي تجد زبائنها من أبناء عمان، أو أولئك القادمين من جهاتها الأربع، ومع مرور الزمن يتحول الشارع إلى واحدة من أهم البؤر التجارية في عمان.

سوق البخارية، وسوق اليمنية، وسوق الحميدية وأسواق أخرى غيرها تنتشر على طرفي الشارع، الذي لا يشبهه أي مكان آخر في عمان، ويتميز بدخلاته المتعددة التي تحمل أسماءها وتتخصص في معظمها بتجارة موحدة.

دور سينما وفنادق شعبية ومقاهٍ وصيدليات وعيادات أطباء وغيرها من الأماكن التي تتجاور، أو تتقابل في هذا الشارع، تحمل معها بصمات التاريخ المعاصر للعاصمة التي قدمت الشارع في صورة لا تتوفر في أحيائها جميعا.

شارع الملك طلال، تسمية ارتبطت بالشارع منذ تم تطويره في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، لتتجدد وظيفة محلاته التجارية، وتدخل إليها وظائف لم تكن معروفة من قبل، ومن بينها محلات العطارة ومحلات بيع الصور وبراويزها وغيرها من المحلات التي تفتح أبوابها لساعات طويلة في الليل والنهار، لتصبح حركة السيارات ذات اتجاه واحد، من الشرق إلى الغرب.

عندما يعلو نداء الله أكبر من الجامع الحسيني الكبير، تغيب نداءات الباعة المتجولين الذين افترشوا في الغالب رصيف الشارع، ولم يعد غريبا رؤية الأرانب والحمام والعصافير المعروضة للبيع في أيام الجمع على رصيف الشارع الذي بات يتسع لبضائع لا حصر لها.

شارع طلال، مكان ينبض برائحة التاريخ العتيق، وصورة جميلة من صور عمان التي كانت، والأسواق العتيقة تظل متمسكة بهويتها القديمة ووظيفتها الأولى، حتى يخيل للرائي أن هذا الشارع لا يعترف بتجاعيد الزمن، شارع يبدو غير متآلف مع تطور الحياة حين يظل منحازا إلى أيامه البعيدة.

وجوه الناس الذين يذرعون الشارع في الاتجاهين تغيرت، وهمومهم تغيرت أيضا، لكن الجميع يخلعون ثوب حداثتهم، وهم يضعون أقدامهم على أول الرصيف، ليبدو انسجامهم واضحا مع وظيفة الشارع ونوع بضاعته.

التظاهرات والمسيرات الشعبية المتفاعلة مع قضايا الوطن والأمة التي شهدها الشارع في خمسينات القرن الماضي وستيناته، عادت في السنوات الأخيرة تقطع الشارع بين الجامع والأمانة، لتؤكد انحياز الأردن إلى قضايا أمته، في وقت لا تغلق فيه المحلات التجارية أبوابها العامرة بالملابس والقماش والعباءات وأنواع الأنتيكا وغيرها من البضاعة التي تظل مطلوبة لمختلف الشرائح الاجتماعية.

أنت في شارع طلال، إذن أنت في قلب عمان، ومن على رصيفه تستطيع رسم ملامح مرحلة مضت، لكنها ما تزال مقيمة في الذاكرة.

شارع الوكالات
علامة فارقة في جغرافية العاصمة

واحد من أشهر شوارع حي الصويفية، إن لم ينافس بشهرته شوارع العاصمة الأقدم والأوسع والأكثر حراكا، لكن شارع الوكالات اكتسب شهرته بعد أن قامت أمانة عمان بتحويله إلى شارع خاص بالمشاة، وأبعدت عجلات المركبات على اختلاف أنواعها عن أرضية الشارع الذي بدا يتسع لمواكب العشاق والباحثين عن لحظة هدوء، في واحد من أحدث أحياء العاصمة، بعيدا عن ضجيج السيارات وزواميرها المزعجة.

تنتشر على جانبية المقاهي الحديثة، ومقاهي الإنترنت، والمحلات التجارية التي تعرض بضاعتها لجمهور مختلف، ولزوار جاءوا إلى الشارع من داخل العاصمة وخارجها، بل من داخل الأردن وخارجه أيضا، إذ أصبحت زيارة شارع الوكالات تتقدم أجندة عدد كبير من ضيوف الأردن، الذين بهرتهم طبيعية الشارع ووظيفته الثقافية والاجتماعية.

صيف شارع الوكالات يختلف عن شتائه، وإن تشابهت أيامه كلها في احتضانه لجمهوره الذي لا يتوقف عن زيارته في كل أيام السنة، ففي ليالي الصيف يتحول الشارع إلى ما يشبه الكرنفال الشعبي، فصار طبيعيا أن يستمتع الجمهور بمتابعة دبكة شعبية، أو يتوقف لسماع دندنات عود فنان هاوٍ، أو يصفق لأداء فرقة فنية محترفة جاءت لتقدم فعاليتها أمام رواد الشارع، بدون حجز مسبق أو دعاية إعلامية.

مجاميع من السياح بدأوا يذرعون الشارع جيئه وذهابا، وهم يتابعون فعاليات شعبية عفوية، تحتضنها ساحة الشارع وأطرافه، حتى تحولت محلاته التجارية إلى جزء من هذه الاحتفالية التي لا تتوقف.

ليس مهما لماذا أطلق عليه اللسان الشعبي اسم شارع الوكالات، لكن الاسم الرسمي للشارع حسب وثائق أمانة عمان الكبرى، وحسب اللافتات التي تشير إلى هويته هو شارع سالم القضاة، ومثل كثير من شوارع العاصمة وساحاتها وميادينها، تراجع الاسم الرسمي للشارع أمام سطوة الاسم الشعبي، وهو أمر دفع المؤسسات الرسمية ووسائل الإعلام المختلفة للتعامل مع الاسم الشعبي المتداول.

صار سمة من سمات الصويفية، وبالتالي علامة فارقة للأحياء الحديثة في عمان الغربية، واستطاع شارع الوكالات أن يكسر الاعتقاد المتوارث بأن شعبية الشوارع والأمكنة تأتي فقط من نبضات تاريخها القديم، وعلاقتها المستمرة بالناس والأحداث، لكن الشارع الذي تحول إلى ما يشبه الظاهرة الشعبية، هو شارع حديث نسبيا، وعمره من عمر الحي الذي يحتضنه، إلا أن أمانة عمان وغيرها من المؤسسات، ذهبت إلى تكريس صورة الشارع في الوجدان والذاكرة الشعبية، من خلال تخصيصه لإقامة عدد من الفعاليات ذات الطابع الشعبي في ساحته التي تكتظ في معظم المساءات بشباب مقبلين على الحياة من مختلف الأعمار والانتماءات الاجتماعية.

إذا كنت من أبناء عمان، أو خارجها، وإذا كنت من ضيوف الأردن، يكفي أن تقول لسائق سيارة الأجرة، أريد شارع الوكالات، دون أن تضطر إلى تقديم مزيد من الشرح الجغرافي للمكان، وستجد نفسك أمام شارع مختلف، في منطقة مختلفة، وبجمهور مختلف أيضا عن السائد في الأماكن المرتبطة بحركة الناس ونشاطاتهم، فتعرف إذن أنك في شارع الوكالات.

شارع الطلياني
صورة عمّـان الأولى

له سماته المختلفة عن غيره من شوارع عمان، هذا الاختلاف يبدو واضحا في الاسم والموقع والوظيفة الاجتماعية والتجارية، فقد حمل اسم "شارع الطلياني" بسبب وجود المستشفى الإيطالي على مقربة منه، وهو أحد أقدم المستشفيات العاملة في العاصمة، لذلك تكرس الشارع واسمه في أذهان المواطنين منذ أربعينات القرن الماضي، وربما قبل ذلك، بسبب جواره للمستشفى الذي أسهم في تخفيف أوجاع الناس وآلامهم.

أحد أقدم شوارع العاصمة، ظل لعقود طويلة عامرا بالحركة التي تميز بها وسط المدينة، فالقادمون من كل مناطق عمان، لا بد لهم أن يمروا في شارع الطلياني، الذي يقدم في محلاته التجارية ما لا تقدمه شوارع عمان الأخرى.

القادمون من الجوفة والأشرفية والتاج والوحدات، والقادمون من مناطق أخرى، عبر طلوع المصدار أو غيره من الشوارع والمفترقات، تكون وجهتهم في الغالب ذلك الشارع الذي تخصص في بيع ملابس "البالة"، الملابس والأحذية الأوروبية والأميركية المستعملة، فالباحثون عن الأسعار الرخيصة، أو الباحثون عن الماركات العالمية، يلتقون في جنبات الشارع ومحلاته التي تظل مزدحمة بالرواد والزبائن والمتفرجين.

لكن شارع الطلياني، في خمسينات القرن الماضي وستيناته، هو غيره في العقد الأول من الألفية الثالثة، ظل الاسم والموقع والوظيفة الاجتماعية والتجارية، لكن

الذي اختلف هو طبيعة الزبائن وأسعار البضائع التي اختلفت بين زمن كان وزمن نعيشه بكل تقلباته الاجتماعية والاقتصادية، التي تركت أثرها الواضح على مداخيل المواطنين وجيوبهم، وعلى قدرتهم الشرائية، حتى لو كان ذلك متعلقا بالبالة أو الملابس والأحذية الأوروبية المستعملة.

الأزمة الاقتصادية، وانتشار المحلات المتشابهة بوظيفتها التجارية في مختلف أحياء عمان، دفع بعدد من أصحاب المحلات العتيقة في شارع الطلياني، لتغيير طبيعة عملهم، فغادرت رزم البالة واجهات المحلات، لتحل محلها أنواع مختلفة من الستائر، حتى صار هذا النوع من التجارة واضح المعالم في الشارع العتيق، وهي ستائر جديدة في معظمها، من مختلف الألوان والأشكال والمناشئ، وإن ظلت بعض المحلات متمسكة بوظيفتها في بيع الأدوات الكهربائية المستعملة، التي تتساوق مع مثيلاتها من الملابس المستعملة.

شارع الطلياني، شريان تجاري متدفق في وسط العاصمة، التقت فيه، في يوم مضى، مختلف النخب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وصار مكانا لوجهة العائلة بجميع أفرادها، خاصة في الأعياد والمواسم الاجتماعية التي تدفع الناس للبحث عما هو جيد ورخيص.

تتبدل وجوه الزبائن في شارع الطلياني، وتتبدل وظائف بعض المحلات، لكن وجوه عدد من أصحاب هذه المحلات لم تتبدل منذ ما يقرب من أربعين عاما، حتى صارت ذاكرة هؤلاء تمثل جزءا من ذاكرة المكان، أو ذاكرة المدينة في قاعها الذي ما زال عامرا بالحركة، وقادرا على استقطاب الزبائن من مختلف أحياء العاصمة وشرائحها الاجتماعية.

رجال ونساء وأطفال، يترددون على الشارع بحثا عن ضالتهم، ولم تعد البضاعة الجيدة والماركات العالمية المعروفة هي ما يبحث عنه هؤلاء المواطنون فقط، بل صارت التسعيرة هي عنوان الحوار الأوسع بين البائع والمشتري.

شارع الطلياني، يحمل في تاريخه جزءا من ملامح عمان العتيقة، وبعضا من صورة مدينة توسعت كثيرا باتجاه أفق غير محدود، لكن "الطلياني" وأخوته في قاع المدينة، ما زالوا يحملون عبق الماضي ورائحة التاريخ وصورة المدينة العتيقة.

شارع الثقافة
الفن والإبداع في الهواء الطلق

في ذروة احتفال عمان بتتويجها عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٢، قامت أمانتها الكبرى بإطلاق اسم "شارع الثقافة" على أحد شوارع حي الشميساني، ليكون للمناسبة التي قد لا تتكرر، حضورها المستمر على الأرض، وينتقل الاحتفاء بالثقافة ونشاطاتها المتنوعة، من القاعات المغلقة إلى الهواء الطلق، ومن جمهور النخبة إلى أوسع قاعدة من أبناء عمان.

لم يأت اختيار الشارع عشوائيا، بل يشير موقعه إلى دقة في الاختيار، وإلى دراسة وافية لتفاصيل المكان، بحيث يتطابق مع اسمه ووظيفته، فالحي الذي يضم في جنباته الشارع، هو حي متحرك، حي عامر بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي، فعلى مقربة منه حركة غير مرئية للبنوك التجارية، وعلى امتداده عدد كبير من المقاهي التي فتحت قاعاتها وأرصفتها لاستقبال الباحثين عن لحظة تأمل، إضافة لعدد لا يحصى من المحلات التجارية بمختلف تخصصاتها، ومن المؤكد أن نشاطات شارع الثقافة قد استقطبت المواطنين في هذا الحي الذي تبدو عليه سمات الأرستقراطية، حيث كان في سبعينات القرن الماضي وثمانيناته واحدا من أرقى أحياء عمان، قبل أن تتمدد العاصمة إلى مساحات جديدة وتنشأ في غربها أحياء أكثر حداثة.

وعلى مقربة من هذا الشارع تقع رابطة الكتاب الأردنيين، ومجمع النقابات المهنية، ومركز هيا الثقافي وغيرها من المؤسسات التي تعطي للمنطقة حراكا شعبيا مختلفا، يجعل منها منطقة عامرة بالنشاط في ساعات النهار وجزء من ساعات الليل.

كان اسمه شارع "١١ آب"، لكن أجواء عاصمة العرب الثقافية، جاءت بالاسم الجديد الذي لم يعد غريب الوقع على ألسنة العمانيين وضيوف مدينتهم، التي باتت تباهي المدن والعواصم بانحيازها للثقافة، حين فردت مساحة من أرضها، ومساحة أكبر من وقتها لإعلاء شأن الوعي والإبداع والفنون بأشكالها كافة.

في ليالي الخميس عادة، وفي كثير من مساءات عمان، يشهد شارع الثقافة حراكا فنيا وثقافيا متميزا، حتى صار من السهل أن تقف على أطرافه للاستماع إلى شاعر يلقي قصيدته في الهواء الطلق الذي ينقلها إلى فضاء المدينة، وأن تستمتع بالدبكات والرقصات الشعبية التي تقدمها الفرق الفنية، مترافقة مع أغاني مطربين، محترفين أو هواة، أو أن يأخذك الفضاء العامر للتأمل في معرض للفن التشكيلي احتضنته حواف الشارع وأطرافه، التي باتت مختلفة عن غيرها من الشوارع الأخرى.

الشارع الذي يحمل اسم الثقافة ويحتفي بها، يشهد في بعض الأمسيات حضورا زاهيا للعائلات وأطفالها، الذين يمارسون ألعابهم الشعبية، وهم مطمئنون إلى هدوء المكان وقدرته على استيعاب جموحهم ونزقهم الطفولي البريء.

"وسطية" حي الشميساني، بين عمان العتيقة وعمان الأكثر حداثة في عمرانها، وبين شرق العاصمة وغربها، أعطت لشارع الثقافة سمة الربط الحضاري بين ما كان وما سيكون، بين وعي أجدادنا وحياتهم ووعي أطفالنا وحياتهم المقبلة، وهو بهذه الوظيفة إنما يقدم صورة مقروءة الصفحات لدور الثقافة ومهمتها في حراسة الوجدان الشعبي، ونقل الاهتمام بالفعاليات الثقافية من النخبة إلى الجمهور الواسع، بحيث تكون لدينا ثقافة جماهيرية تسهم في إعادة صياغة الحياة، كما نتمناها.

شارع الثقافة، شارع مختلف في اسمه ووظيفته وطبيعة جمهوره، وقد استطاع تكريس نفسه في الذاكرة الشعبية، من خلال موقعه المتميز في قلب منطقة ما تزال ضاجة بالحركة وعامرة بالنشاط.

شارع بسمان
صورة شارع ظلّ بهياً

أدراج صاعدة وأخرى نازلة، تمسك بطرفي شارع بسمان العتيق، ليظل شاهدا على نمو مدينة وتطورها، صاعدة باتجاه أطراف جبل عمان، ونازلة باتجاه شارع فيصل، فيما هو يفتح ذراعيه باتجاه الجامع الحسيني، حيث كانت عمان فيما مضى، تحدد مسار حركتها السياسية والاقتصادية والتجارية والاجتماعية من محيط الجامع الذي جمع حوله الناس من كل الجهات.

ليس بعيدا عن طرفه، يتربع مطعم هاشم منذ أمد بعيد، فيما تحرس مدخله المكتبات والمقاهي العامرة بزبائنها من كل الشرائح والأعمار، وعلى يسار الذاهبين باتجاه الجامع، يقع درج صغير، يمكن لمن يقف على أول درجاته أن يشم رائحة الفلافل المنبعثة من "مطعم فؤاد"، أحد أقدم مطاعم المدينة، وأكثرها شهرة في صناعة الفلافل، التي لم تعد حكرا على موائد الفقراء، وبعد مسافة قصيرة يواجه المارة درج أكثر اتساعا من سابقه، درج مزركش بالنقوش على بلاطاته الحجرية القديمة، وهو ينزل بسالكيه إلى سوق منكو، أحد أقدم الأسواق التجارية وأشهرها في عمان العتيقة، السوق المتخصصة ببيع مستلزمات العرائس، وإن دفع تطور الزمن والحياة بعض أصحاب المحلات في السوق العتيقة، للتعامل مع أنواع أخرى من البضائع، قد تكون قريبة أو بعيدة عن اختصاصهم الأول الذي تعود عليه أبناء المدينة وضيوفها، قبل أن يصل بك المسير إلى درج ثالث، غير بعيد عن نهاية الشارع يؤدي إلى ما بات يعرف عند العمانيين بسوق المصري، المشهور ببيع الأقمشة وما يجاورها من بضائع تهم الناس.

لكن الدرج الأكثر شهرة، هو الواقع على يمين المارة، الدرج الصاعد إلى أطراف جبل عمان، والمعروف شعبيا بدرج المحكمة، بسبب وجود المحكمة عند أعلى درجاته، وهو درج واسع يشبه الشوارع العريضة ذات الاتجاهين، ويوجد في وسطه "درابزين" لمساعدة المتعبين في تسلق درجاته الكثيرة.

الأدراج المنتشرة على الجانبين، تعطي شارع بسمان تميزا مختلفا، بسبب تدفق العابرين إليه من الاتجاهين، وهي أدراج تختصر المسافات وتقرب الشوارع من بعضها.

في مساءات أيام الصيف والشتاء من خمسينات القرن الماضي وستيناته، كانت نخب عمان السياسية والاقتصادية والاجتماعية تلتقي في شارع بسمان على غير موعد، حين تتوزع العائلات بحسب مزاجها واهتمامها على داري السينما الفاخرتين الموجودتين في الشارع العتيق، وهما سينما بسمان وسينما رغدان، وإذا كانت سينما بسمان تضم بين جنباتها واحدا من أهم المدرجات المسرحية في عمان العتيقة، الأمر الذي دفع بعميد المسرح العربي الفنان الراحل يوسف وهبي لمواجهة الجمهور الأردني من على هذا المسرح الشهير كما يشير إلى ذلك تاريخ عمان الفني، فإن سينما رغدان، قد تخصصت إلى حد كبير في تقديم الأفلام الهندية، التي كانت تجد لها جمهورا واسعا، بسبب رومنسية القصة التي تطرحها، ومن خلال الفيلم الذي يقدم مجموعة من الأغنيات التي كانت تستقطب اهتمام الرواد، وقد غابت عن الشارع صور عتيقة وأسرار متراكمة، بسبب إغلاق سينما بسمان، والإعلان عن إنهاء وظيفتها الثقافية والترفيهية، التي امتدت لسنوات طويلة، ولم تحافظ المحلات التجارية المنتشرة على جانبي الشارع على وظيفتها الأولى، حيث يبدو الشارع من خلال محلاته العديدة متخصصا ببيع التجهيزات الرياضية، وبيع مستلزمات الخياطة بكل أنواعها، لكن العابرين للشارع سيشاهدون محلات جددت بضاعتها، وبدأت

تعرض أجهزة خلوية ومواد كهربائية وأنواعا أخرى من البضاعة الحديثة، التي لم تكن معروفة للشارع في أيامه العتيقة.

نصف كيلو متر، أو أكثر قليلا، هي المسافة التي تمدد عليها الشارع بين طرفيه، بصعود خفيف من جهة، وهبوط خفيف من الجهة الأخرى، ولأن عرض الشارع ضيق، كما هي شوارع عمان العتيقة، فإن حركة السيارات التي تسير فيه أصبحت باتجاه واحد صوب الجامع الحسيني، تزيد من ظاهرة الازدحام في الشارع، الذي ظهرت دعوات عديدة من مستخدميه لتحويله إلى شارع للمشاة، ليكون واحدا من شوارع وسط البلد الجاذبة لحركة السياح في جانبيها الداخلي والخارجي، وهي دعوات قد تبدو منطقية عند التعرف على تاريخ الشارع ووظيفته السياسية والتجارية والاجتماعية، منذ عشرات السنين.

أشهر أطباء عمان وأقدمهم، اتخذوا من الشارع مقرا لعياداتهم التي كانوا يستقبلون فيها مرضاهم القادمين من كل جهات العاصمة، فيما يتذكر أبناء عمان أن الشارع العتيق ضم في جنباته واحدا من أشهر فنادق المدينة وأرقاها في العقود البعيدة، قبل أن يغلق الفندق أبوابه، ويمنح اسمه لفندق آخر، أكثر حداثة في عمان الغربية.

شارع بسمان، صورة لم تتخل عن ملامحها الأولى، وهو شارع تزين جانبيه واجهات المباني الحجرية، التي تم بناؤها على الطراز الشرقي، وقد تحولت اليوم إلى واحد من أبرز معالم عمان العمرانية.

شارع الرينبو
الحياة في صورتها العتيقة

اعترفت أمانة عمان الكبرى بسطوة التسمية الشعبية للشارع، فذهبت إلى اعتمادها رسميا، وصارت كلمة "الرينبو" تتوسط تلك اللافتات الزرقاء التي تشير إلى اسم الشارع الذي تميز عن غيره من شوارع عمان، وكما كان الاسم الرسمي للشارع غائبا عن تعاملات الناس وألسنتهم، فقد ذهبت الأمانة إلى ترحيل الاسم أيضا إلى منطقة أخرى، إذ نادرا ما عرف قاصدو شارع "الرينبو" ورواده أن اسمه الحقيقي هو شارع "أبو بكر الصديق" الذي تم إطلاقه لاحقا على أحد شوارع عمان الغربية.

السينما التي حملت اسم الشارع، أو حمل الشارع اسمها منذ عشرات السنين، غابت عن الشارع الذي احتفظ بالاسم وظل وفيا له، لكن الجمهور الذي تعود على ارتياد تلك السينما، لم يغادر الشارع تماما، وتحولت الدار التي احتضنت تلك السينما إلى مسرح له جمهوره الذي يأتي إليه من مختلف أحياء العاصمة.

أحد الشوارع العتيقة في عمان، وهو الشارع الذي ارتبط في وعي العمانيين وذاكرتهم وحركتهم، منذ أن بدأت العاصمة تمد بيوتها باتجاه الجبال المجاورة لوسط البلد، وقد مثل منذ سنوات موغلة في القدم شريانا حيويا، ونهرا يتدفق بالعابرين، ينبع من الدوار الأول في جبل عمان ويتجه شرقا صوب شارع منكو، ويضم على جوانبه عددا من المؤسسات الرسمية والشعبية التي ظلت منحازة لرائحة المكان العتيق، رغم إغراءات الحياة في أحياء عمان الحديثة، ومن هذه المؤسسات،

السفارة السعودية، والمركز الثقافي البريطاني، والمقر الرئيس لشركة مصفاة البترول الأردنية وغيرها، كما يضم العديد من المحلات التجارية والمقاهي التي تستقطب جمهورها على مدار ساعات النهار، وجزء كبير من ساعات الليل.

أمانة عمان الكبرى، صنفت شارع "الرينبو" بأنه منطقه تراثية، ولذلك صارت البيوتات المحيطة به مشمولة بالحماية والرعاية، لأنها تمثل جزءا من تراث المدينة وذاكرتها المكانية، واجتهدت الأمانة في تطوير الشارع الذي أصبح شارعا للمشاة في العاصمة، كما هو معمول به في عواصم ومدن عديدة في الوطن العربي والعالم.

في صيف عمان، وفي غيره من المناسبات التي تحتضنها العاصمة، يتحول شارع "الرينبو" إلى كرنفال من الفرح الشعبي، وتقام على جنباته العديد من الفعاليات الفنية والثقافية، التي صارت جزءا من وظيفة الشارع ومهمته الجديدة، كما يشهد فعاليات متنوعة في أمسيات شهر رمضان المبارك.

الشارع العتيق الذي يطل على حركة المدينة التي لا تتوقف في وسط البلد، كان قبل ستين عاما وأكثر، مكانا لاستقطاب الباحثين عن الراحة والهدوء والجمال، إذ يقع على مقربة منه بيت الملك الراحل طلال، كما يقع على أطرافه بيت الأمير زيد بن شاكر، وبيت رئيس الوزراء الأسبق سعيد المفتي، وبيوت غيرهم من أعيان عمان ووجهائها وأثريائها.

الهدوء الذي كان يتميز به الشارع في بدايات عهده، عاد إليه ثانية، عندما توقفت حركة السيارات فوق إسفلته الذي تحول إلى نوع من البلاط، ليكون حنونا على وقع خطوات العاشقين، والباحثين عن لحظة تأمل، أو الراغبين بالتعرف على شيء من حياة عمان العتيقة، التي صار شارع "الرينبو" مؤهلا لتقديمها لزواره وقاصديه.

جسر ودوار عبدون
شامة جميلة في جبين العاصمة

إذا كانت "الدواوير" هي ما يميز شوارع عمان عن غيرها، باعتبارها "محطات" عريضة تحد من تعرجات الشوارع، أو امتدادها اللامتناهي، فإن "دوار عبدون" يمثل زهو تلك الدوارات ودرتها، في الحركة والشهرة والجمال.

دواوير جبل عمان الثمانية، ومعها دواوير الداخلية والمدينة والواحة والشرق الأوسط، وإلى جانبها دواوير باريس وصويلح والكيلو وفراس والنزهة، تقف لتبايع "دوار عبدون"، وتمنحه شارة الحركة الأولى، والتعامل معه كعلامة فارقة في جبين شوارع عمان الصاخبة بحركة السيارات والمواطنين التي لا تتوقف.

قبل سنوات، كان اسمه "دوار النادي الأرثوذكسي"، كما تعود اللسان الشعبي على نطقه، ولم يكن في تلك الفترة يمتلك الحضور الذي يمتلكه اليوم، عندما تغير اسمه إلى "دوار عبدون"، رغم أن النادي الأرثوذكسي، كان وما يزال، ناديا للنخبة، وواحدا من نوادي عمان العريقة، لكن ضاحية عبدون التي أخذت تميزها العمراني والاجتماعي والجغرافي والاقتصادي في خارطة العاصمة، منحت هذا التميز أيضا للدوار الذي حمل اسمها، إلى درجة أن "الكزدرة" في محيط الدوار، استقطبت شبابا وصبايا من مختلف أحياء العاصمة، ومن مختلف الانتماءات الاجتماعية أيضا، وصار الدوار نقطة التقاء الباحثين عن لحظة مختلفة في حياة جيل شاب صارت له فلسفته الخاصة في الحياة والأحداث.

المنطقة الجغرافية الراقية، ووجود فروع لسلسلة من المطاعم والمقاهي العالمية فيها، مثلت مع غيرها نقاط جذب لحركة الشباب والصبايا الذين منحوا المكان

خصوصيته، وصار دوار عبدون كلمة تتردد على شفاه أبناء العاصمة، حتى لو كانت على سبيل المقارنة بوظيفة "الدواوير" الكثيرة المنتشرة في شوارع عمان.

الذين تأخذهم أقدامهم إلى دوار عبدون، لن تأخذهم المفاجأة وهم يشاهدون حفلا فنيا يقام في الهواء الطلق، لفنان أو فرقة فنية، من الشباب أو المحترفين، فأمانة عمان وغيرها من المؤسسات تحرص على إعطاء المكان لونا خاصا، مستفيدة من الاسم الشائع، ومن الجمهور الذي يكاد لا ينقطع على مدار ساعات اليوم.

زرافات وزرافات، هم الذين اختاروا "الكزدرة" على حواف الدوار، ومن النادر أن تجدهم وحدانا، فالقادمون إلى المكان، تسبقهم اتفاقات ومواعيد، ليكون الدوار مكانا لتجمع القادمين من مختلف الأطراف والشرائح الاجتماعية، لكن على الشباب الذاهبين إلى المكان، أن لا يستغربوا، إذا ما وجدوا سعر فنجان القهوة في مقاهي الدوار، أو سعر صحن الحمص في مطاعمه، أضعاف الأسعار التي تعودوا عليها في مناطقهم، فاسم المكان وشهرته لها ضريبتها التي تنعكس على جيوب الناس.

في الفترة الأخيرة، ارتبط اسم دوار عبدون بجسر عبدون المعلق، لينطلق من أطراف الدوار أول جسر معلق في الأردن يضع نهايته على حافة الدوار الرابع، في مواجهة دار رئاسة الوزراء، وكان الرئيس معروف البخيت الذي تم افتتاح الجسر في عهد حكومته، أول من قطع الجسر في سيارته، وصار الجسر شريانا يصل غربي عمان بشرقيها، وأسهم في تخفيف الأزمة المرورية التي كانت سمة ملازمة لتلك المنطقة.

سلوك الشباب والصبايا على أطراف دوار عبدون، يختلف تماما عن سلوكهم على أطراف الدوارات الأخرى، وباستثناء دوار فراس في وسط جبل الحسين، ودوار باريس في وسط جبل اللويبدة، فإن دواوير عمان الأخرى، قد تتقاطع مع حركة الناس، وهي ليست شعبية بالمعنى المتداول، وتكاد تقتصر على حركة السيارات، لذلك جاء تميز دوار عبدون عن غيره من مناطق العاصمة، وهو الذي يملك تفرده في الجغرافيا والسلوك الاجتماعي، وعليك أن تتصرف بما يحلو لك.. وأنت تقف على أطراف دوار عبدون.

دواوير عمّـان
عناوين واضحة للعابرين

تكاد عمان تتميز عن غيرها من المدن والعواصـم، بكثـرة الـدواوير التـي تتربـع في شـوارعها العريضـة والضـيقة علـى حـد سـواء، ويـرى المتجولـون في شـوارع عمـان وأحيائها أن معظم هذه الدواوير تنتشر في أحياء عمان الغربية، دون أن تغـادر مواقعهـا العتيقة في الأحياء الشرقية أو ما يجاورها.

الدواوير التي تعطي مستخدمي الشارع، راجلين وراكبين، فرصة أكبر في استخدام الطريق، بدأت تنافسها الإشارات الضوئية، كما هو الحال في دوار المنهل، على سبيل المثـال، لتحـدد حركـة الـداخلين للـدوار والخـارجين منـه، ويـرى الـبعض أن دخـول الإشارات الضوئية في محيط هذه الـدواوير، سيسـرق منهـا بعـض حضـورها في ذاكـرة الناس والمدينة.

وإذا كانت بعض الدواوير، كما هـو الحـال في دوار الداخليـة، قـد فقـدت صـورتها "الجغرافيـة" التـي منحتهـا الاسـم والوظيفـة، بسـبب تطـوير الـدوار، لتسـهيل حركـة المرور ومواجهة الازدحامات، فإن الاسم في الذاكرة الشعبية ما يزال منحازا للتسـمية الأولى، حتى لو اختلفت ملامح الدوار نهائيا.

جبل عمان، أكثر مناطق العاصمة احتضـانا للـدواوير، هـذه الـدواوير التـي تحمـل أسماء رسمية، تمت كتابتها على لافتات كبيرة للتعريف بها، إلا أن اللسان الشـعبي مـا يزال منحازا لتسلسل الأرقام في توصيف هذه الدواوير والتعريف بها، بدءا مـن الـدوار الأول، الـذي يمـد أصـابعه باتجـاه وسـط المدينـة، وانتهـاء بالـدوار الثـامن الـذي يمـد

أصابعه باتجاه أفق غير محدود، قد تصل إلى وادي السير وطريق المطار وغيرها من أطراف عمان التي لا تتوقف عن التمدد والاتساع.

المدينة والداخلية وفراس وصويلح والواحة والكيلو وعبدون والشرق الأوسط وباريس والنزهة وغيرها، هي أسماء متداولة لدواوير تنتشر في مختلف أطراف عمان، وبعض هذه الدواوير، كما هو الحال في أخواتها بجبل عمان، تحمل أسماء رسمية ظاهرة لكل من يستخدمها، إلا أن أسماءها الشعبية ما تزال متداولة على ألسنة المواطنين، الذين يجعلون منها عناوين رئيسة للجغرافيا التي يريدون التعامل معها، داخل أحياء العاصمة وشوارعها.

وتختلف علاقة المواطنين بهذه الدواوير وتعاملهم معها من دوار لآخر، وقد تكون دواوير فراس، وعبدون، وباريس، والأول والشرق الأوسط والواحة والنزهة، على سبيل المثال، هي الأكثر علاقة بأقدام الراجلين، بسبب وجود حركة تجارية وشعبية رائجة في محيط هذه المواقع، في وقت قد تكون فيه دواوير مثل الرابع والخامس والسادس والكيلو وغيرها، مواقع ذات دلالات مختلفة عن سابقاتها، ما يجعل منها مواقع للتعريف الجغرافي، أكثر مما قد تكون مواقع لحركة المواطنين.

ولم تختف الدواوير من المناطق الأخرى تماما، وإن كانت وظيفتها أقل لمعانا، وقد أخذت أسماءها من أسماء المناطق التي توجد بها، ومنها على سبيل المثال دوار المطار في ماركا، دوار النزهة، دوار الكمالية، دوار الرابية، وغيرها من الدواوير الأقل شهرة، والأقل تداولا على ألسنة الناس، بسبب وجودها في مناطق لا تملك الاتساع الذي تملكه الدواوير الرئيسة.

دواوير عمان صورة زاهية لشوارعها وأحيائها، وهي محطات استراحة، تنقل العابرين من عنوان إلى آخر، حيث تنتهي على أطراف الدوار محطات جغرافية، لتبدأ محطات جغرافية أخرى، تسهم جميعها في تكوين صورة المدينة وتلوينها بصفحات من الجمال والحركة والنشاط.

جبل اللويبدة
أول الحروف وأجمل الأسماء

ربما استندت دعوة الشاعر حيدر محمود لإطلاق اسم "جبل الثقافة" على اللويبدة، إلى أكثر من اعتبار:

- فعدد كبير من شوارع هذا الجبل تحمل أسماء رموز ثقافية، عربية وأردنية، من ضمنها أحمد شوقي، إبراهيم طوقان، حسني فريز، مؤنس الرزاز وغيرهم.
- ثم إن عددا كبيرا من المؤسسات الفنية والثقافية، اتخذت من الجبل مساحة لحركتها، رابطة الكتاب الأردنيين لأكثر من ثلاثين عاما، نقابة الفنانين، دارة الفنون، رابطة الفنانين التشكيليين، وغيرها من المحترفات والأندية والمراسم والمتاحف.
- يضاف إلى ذلك إقامة عدد كبير من رموز الفن والفكر والثقافة في جبل اللويبدة، الذي ارتبط بذاكرة هؤلاء وغيرهم، وصار المكان الأكثر حميمية في عمان، عند مختلف المرجعيات الثقافية والفنية، ومن بين هؤلاء منيف الرزاز، عبد الرحمن شقير وآخرين، مع ما يمثله جبل اللويبدة من تراث فني وثقافي ومعماري، في ذاكرة المدينة وذاكرة أهلها.

ورغم موجة الحداثة العمرانية التي اجتاحت شوارع العاصمة وأحياءها، منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضي، إلا أن جبل اللويبدة، وبفضل طبيعته المختلفة، استطاع الحفاظ على هوية معماره التراثي، وصمد بقوة أمام رياح التغيير، وهذا ما دعا مجموعة من المثقفين والناشطين إلى تأسيس جمعية أصدقاء اللويبدة، لتأخذ

على عاتقها مهمة الدفاع عن صورة الجبل ومكانته في الذاكرة الشعبية، ولمنع الجرافات والمعاول من الاقتراب من أسوار تلك البيوت التراثية التي قدمت صورة مغايرة لعمان، منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن.

في حسابات الجغرافيا، فإن جبل اللويبدة يمثل منطقة عمانية وسطى، وهو بمثابة الجسر الذي يربط شرقي العاصمة بغربيِّها، لكن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى أن ملامح الأرستقراطية العمانية التقليدية، التي كرست نفسها في خمسينات القرن الماضي وستيناته، قد تركت بصماتها على بيوت هذا الجبل وشوارعه وهيئته العامة، وفرضت حضورها بقوة في المشهد البصري، وهي صورة لم يستطع الثراء المفاجئ الذي اجتاح البلاد والعباد، إعادة إنتاجها في أحياء عمان الغربية، التي تبدو متشابهة في شكل معمارها الخارجي، دون أي مميزات خاصة، وهذا ما يفسر الوصف الذي أطلقه الكاتب باسم سكجها على الجبل، حين قال إنه بمثابة قرية داخل مدينة، وهو وصف يشير إلى خصوصية جبل اللويبدة، وتشابه ملامح صورته الخارجية، وانحيازه إلى وظيفته الشعبية التي أعطت للثقافة والفن حيزا كبيرا، وهي وظيفة قد لا تتوفر في الكثير من أحياء عمان الأخرى.

شوارع جبل اللويبدة وبيوته العتيقة، تحمل كل منها قصة مميزة، كما يقول عشاقه، ومن مجموع هذه القصص تتبلور رواية اللويبدة، التي هي بالأساس رواية عمان النابضة بالحياة، التي بدأت منذ أربعينات القرن الماضي، مع أول نافذة تشرع على فضاء أخضر عامر بالحياة والبساتين وأشعة الشمس، وهو فضاء استهوى تجار عمان ومثقفيها وساستها، الذين استدرجهم هدوء الجبل وهواؤه وطبيعة حياته، لتبدأ حياة مختلفة عن تلك التي عاشتها أحياء عمان الأخرى في تلك المرحلة، وهي حياة حافظت على مسار حركتها، رغم أن كثيرين ممن استوطنوا الجبل ذا الملامح الأرستقراطية الرزينة، غادروه إلى أحياء أكثر حداثة وحراكا.

جناحـان مـن أجنحـة اللويبـدة الأربعـة، يرتبطـان بـأطراف المدينـة ، واحـد بحـي الشميساني، والآخر بجبل عمـان، فيمـا يـرتبط جناحـاه الآخـران بوسـط البلـد ومنطقـة العبدلي، وظل نبضه قريبا من جبل القلعة ذي العمـق التـاريخي العريـق، وهـي صـورة تقدم للباحث المتخصص، في وظيفة الجبل ودوره الاجتماعي، ما يعينه علـى القـراءة والتفسير، وما يجعل من هذا المكان حالـة استثنائية، بـالمعنى الاجتمـاعي، والمعنـى السيكولوجي أيضا.

الأدراج التـي تـربط جبـل اللويبـدة بمحيطـه الجغـرافي، هـي أدراج مـا تـزال تقـوم بوظيفتها الاجتماعيـة منـذ عشـرات السـنين، أي منـذ أن بـدأت الحيـاة تـدب في وسـط الجبـل وأطرافـه، ورغـم التطـور الهائـل في وسـائل التكنولـوجيـا، ومـن بينهـا وسـائل المواصلات، إلا أن أقدام عشاق هذا الجبل وأصدقائه، لم تبرح مكانها الأثير، صعودا وهبوطا في الاتجاهات الأربعة، في علاقة استثنائية مع جبل يظل نابضا بالحياة.

المسافة التي تربط بين ساحة باريس، التـي ظـل اسـمها علـى ألسـنة النـاس سـاحة الحـاووز، وبين المنتزه، هـي مسـافة عابقـة بكـل مغريـات الحيـاة، حتـى المشـاة الـذين يذرعون شوارع الجبل جيئة وذهابـا، يتحـدثون عـن علاقـة خاصـة تـربطهم بالمكـان، وعن قصصهم الشخصية التي تكونت مع الشجر والحجر والهواء والأرصـفة، ويبـدو انحيازهم واضحا حين يقولون إن أسواق الجبل ومحاله التجارية، تختلف عن غيرها في أحياء عمان المتناثرة في الاتجاهات الأربعة.

جبـل يحمـل تميـزه في الاسـم والوظيفـة الاجتماعيـة والهويـة المعماريـة والـدور التاريخي و(الوسطية) التي تميل باتجاه الأرستقراطية، وهو ما يتطلب اندفاعـة شـعبية للحفاظ على هذا التراث الـذي يمثـل صـورة عمـان في عصـر اسـتقرارها الاجتمـاعي، وقبـل سـطوة مفـاهيم الثـراء المفـاجئ الـذي خلخـل الكثيـر مـن البنـى الاجتماعيـة والأخلاقية في المجتمع.

جبل القلعة

حكاية تاريخ المدينة

من حق جبل القلعة أن يشعر بتميزه عن باقي جبال عمان، وأن يباهي بتفرده في الوظيفة السياسية والعسكرية والاجتماعية الموكلة إليه، والموغلة عميقا في خاصرة التاريخ الشفوي والمكتوب للأردن والمنطقة، أي منذ اتخذه العمونيون القدماء، مقرا لحكمهم وقاعدة لسلطانهم، يوم كانت "ربة عمون" تضيء قناديلها العامرة بزيت الحياة، وتكتب جزءا من تاريخ المنطقة، وتسهم في تكريس منارة عالية لحضارة ما تزال تعلن عن ريادتها حتى اليوم، ومن حقه كذلك أن يفاخر بسيرته البهية التي تملأ الصحف العتيقة.

ومنذ تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ المدينة، لم يتخل جبل القلعة عن دوره ووظيفته وعلاقته بالمكان، سواء في عهد اليونان أو الرومان أو البيزنطيين، وصولا إلى العهد الإسلامي الممثل بالدولة الأموية، فقد ظل موقع جبل القلعة، الذي يطل على قاع المدينة من جهاته الثلاث، شاهدا على حركة التاريخ، ومؤثرا فيها، ونقطة جذب لكل الحضارات الإنسانية التي تركت بصماتها واضحة، ليس على قمة الجبل فقط، بل في وسط المدينة وأطرافها أيضا.

الجبل الذي يرتفع عن سطح البحر مئة وخمسة وثلاثين مترا، يحتضن في "أحشائه" كثيرا مما ترك الأجداد الأقدمون، الذين حطوا رحال حضارتهم بين جنباته، ويمكن القول إن التماثيل البشرية التي تنام في أحضانه، هي أقدم تماثيل من

نوعها قدمت صورا بشرية في الحضارة الإنسانية، كما تشير إلى ذلك أوراق التاريخ وصحائف الماضي، وإن بعض الآثار التي تم اكتشافها في جبل القلعة، يعود زمنها إلى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد، وهو زمن كانت فيه الحضارات البشرية تبدو متواضعة أمام الإنجاز التاريخي الذي ينتسب للجبل وأهله، في حين تشير الوثائق التاريخية المتوفرة إلى أن الحياة الإنسانية ازدهرت في المدينة منذ عام ٨٣٠٠ ق. م، وفي هذا ما يؤكد أن أقدام عمان ، التي حملت أسماء عديدة على مر العصور، تمتد عميقا في التاريخ البشري، وهي واحدة من المدن التي تركت آثارا خالدة تدل على حضارة أهلها الأقدمين.

انتباهة إلى جبل اللويبدة، وانتباهات كثيرة من جبل القلعة نحو وسط المدينة والمدرج الروماني، فيما يدير ظهره مطمئنا نحو جبل الحسين، مستندا إلى سور كان يحمي الجبل وسكانه، وترتفع عليه أبراج لمراقبة من يحاول التسلل إلى قلب عمان من جهاتها الأربع.

وزارة السياحة، كما دائرة الآثار، انتبهتا منذ سنوات بعيدة لدور جبل القلعة في ترويج السياحة الداخلية والخارجية، باعتباره حاضنة لجزء بهي من تاريخ المدينة، فاهتمتا بإبراز ما تم اكتشافه من آثار عتيقة، تشير إلى الحضارات التي تعاقبت على حكم المدينة، وتحمل بصمات أولئك الأجداد، ومن المؤكد أن ما تحتضنه أحشاء الجبل من الكنوز التاريخية، هو أكثر بكثير مما تم اكتشافه حتى الآن، لكن الأعمدة والأسوار ومعبد هرقل وبقايا الكنيسة البيزنطية والقصر الأموي والبحيرة المحفورة في الصخر الجيري، وغيرها من الشواهد، تؤشر جهارا بالأصابع العشرة، إلى دور عمان العتيقة في بناء محطات التاريخ البشري، لذلك صار من الطبيعي أن تنتبه الدولة المعاصرة إلى ضرورة إقامة المهرجانات الفنية والثقافية والاحتفالات الشعبية، على قمة جبل القلعة، قريبا من نبض تلك الشواهد الحضارية، في رسالة واضحة للسياح

والزائـرين، تـوحي بـتلاحم الحاضـر مـع الماضـي في أجـواء عمـان التـي تسـير بثقـة واطمئنان نحو المستقبل.

الذين تقودهم خطاهم إلى جبـل القلعـة، يقفـون بانبهـار أمـام بوابـة متحـف الآثـار الأردني، الـذي تأسـس عـام ١٩٥١، ويضـم شـواهد تاريخيـة مـن مختلـف العصـور والحضارات، من بينها مخطوطات البحر الميت، التي تم اكتشافها بالصـدفة مـن قبـل أحد الرعاة، في جرة فخاريـة بواحـد مـن كهـوف قمـران في الجانـب الغربـي مـن البحـر الميت، فيما تقـف تماثيـل العمـونيين وآثـارهم الخالـدة، شـاهدة علـى حضـارة عريقـة كانـت هنـا، في وقـت لـم تتخـل فيـه عمـان وأخواتهـا، عـن الـدور المحلـي والإقليمـي المنوط بها على مر التاريخ.

سكة قطار تصل جبل القلعة مع المدرج الروماني، كما ترى ذلك وزارة السياحة، ستمنح المنطقة مزيدا مـن الحركـة والنشـاط في جانبـه السـياحي، ويعيـد للمنطقـة ألـق تاريخهـا العريـق، وهـو ينـتج حاضـرا زاهيـا، يظـل مشـدودا إلـى دور عمـان ووظيفتهـا السياسية والثقافية والاجتماعية والحضارية.

أحد جبال عمان السبعة، مع بدء نهوضها الحديث، ليتحـول اليـوم إلـى واحـد مـن جبال وتلال تضـاعف عـددها، واتسـعت مـن خلالهـا أطـراف المدينـة، ليحـافظ علـى هيبته المستندة إلى فعل حضاري عريق، يحكي قصة مدينة لم تغب عن عـين الزمـان، ومن هنا لم يكن غريبا أن يتم اختيـار جبـل القلعـة، ليكـون حاضـنة لمـدفع رمضـان في عصـرها الحـديث، وهـو المـدفع الـذي يعلـو صـوت قذائفـه في موعـدي الإفطـار والسحور، ليسمعه أهل عمان، بسبب توسطه لجغرافية المدينة.

ويمكن الإشـارة إلـى أن جبـل القلعـة، بمكانتـه الرزينـة علـى منصـة التـاريخ، كـان ملهمـا للعديـد مـن الشـعراء والأدبـاء والمـؤرخين، الـذين تعـاملوا مـع المكـان الـذي

احتلته عمان، منذ أن كانت في عمق التاريخ، ومن الأمثلة على ذلك، قصيدة حملت عنوان "جبل القلعة"، للشاعر محمد الظاهر جاء فيها:

قلعة من حشايا القلاع

في اندفاع

من غبار الزمان

غابة من شعاع

على تلة عالية

تضيء

لتكشف مرج الرؤى الغافية

في عمّـان
سبعمئة جامع تنادي باسم اللّه

حين ينادى للصلاة في عمان، فإن سبع مئة جامع تردد نـداء الله أكـبر، ناشـرة صـور الإيمان والطمأنينة في بيوت أهـل العاصـمة التـي تتمـدد علـى مسـاحة واسـعة في قلـب الوطن.

وتروي لنا صفحات التاريخ العربي الإسلامي، أن الجامع هو الذي جمـع شـتات الناس في المكان، لتتكون حوله المدن والحواضر العربية والإسلامية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، تكاد تمتلئ بها صحائف التاريخ، قديمه وحديثه.

ولـم تختلـف عمـان في سـياق تكوينهـا الحـديث، عـن شـقيقاتها الكثـر مـن المـدن العربية والإسلامية، فقد كان الجامع الحسيني الكبير، الذي انطلق منـه نـداء الله أكـبر، لاستقبال المؤمنين، منذ مطلع عشرينات القرن الماضـي، هـو نقطـة الانطـلاق لمدينـة عصرية، بدأت تتوسع في كل الاتجاهـات، وصـار الجـامع هـو مركـز المدينـة، ومركـز حركتها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية المتجددة.

ومنـذ وضـع الجـامع الحسـيني الكبيـر بسـاط هيبتـه في المكـان، أسـلمت الجبـال والتلال والصخور المحيطة نفسها، لإرادة العمانيين ومعاولهم، وبدأت الحياة تتمـدد في الاتجاهات الأربعة، حيث يغطي نداء الله أكبر، المكان والفضاء.

الجامع الوحيد الذي ضخ دم الحياة في شرايين عمان، منذ بـدأت تـتلمس دورهـا السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحضاري، يقف معه اليـوم مـا يقـرب مـن سـبع

مئة جامع تنتشر في كل أحياء العاصمة، وتسهم بتقديم رسالتها الروحية التي تنعش حياة الزمان والمكان والإنسان.

جوامع تتميز بعمرانها الجميل، ومناراتها التي تعانق الشمس، وبفضائها الذي ينفتح على الجهات كلها، في عمان الغربية وعمان الشرقية، في الأحياء الشعبية المكتظة بحركة الناس، وفي الأحياء الراقية التي تقدم عمان مدينة عصرية بكل المقاييس.

الجامع، هو ما يوحد شطري العاصمة، اللذين يختلفان في أسلوب الحياة وسلوك المواطنين، لكن النداء العظيم الذي ينطلق منه، هو النداء نفسه الذي يجمع حوله قلوب المؤمنين.

بعد أن وضع الجامع الحسيني الكبير أركانه في وسط المدينة، انتشرت في العقود اللاحقة مئات الجوامع في مختلف أحياء عمان، وامتلك بعضها سمات دينية وتاريخية وشعبية ميزته عن غيره، ولعل الدارسين لتاريخ عمان الحديث وتطورها في القرن الأخير، سيتوقفون عند مجموعة من الجوامع التي امتلكت خصوصية في حياة أبناء المدينة، إما لدروها التاريخي، أو لطريقة بنائها المعماري، أو لوظيفتها السياسية والاجتماعية، أو لدورها في قيادة المشهد الإيماني في عمان، وفي مقدمة هذه الجوامع التي تملك تميزها وخصوصيتها، يقع جامع الملك المؤسس في منطقة العبدلي، وجامع الملك الحسين في غرب العاصمة، اللذان يملكان كثيرا من المميزات الخاصة، من خلال ما يلحق بهما من مؤسسات تسهم في تقوية الرسالة الإيمانية للجامع، من مكتبات وغيرها، وهناك جامع "أبو درويش" في حي الأشرفية، وجامع الجامعة الأردنية، وجامع الكالوتي في حي الرابية الذي اشتهر بسبب قربه من السفارة الإسرائيلية واتخاذه نقطة انطلاق للعديد من التظاهرات، وجامع عبد الرحمن بن عوف في منطقة صويلح، وجامع كلية الشريعة في جبل اللويبدة وغيرها.

جوامع كثيرة في عمان تم بناؤها على نفقة أشخاص محسنين، أو مؤسسات خيرية، حملت هذه الجوامع أسماءهم أو أسماء الصحابة، فيما قامت الدولة ممثلة بوزارة الأوقاف، ببناء عدد آخر من الجوامع، ليلتقي فيها المؤمنون حين يقفون بين يدي الله خاشعين.

لم تقتصر وظيفة الجامع في عمان وغيرها من المدن العربية والإسلامية، على الوظيفة الدينية فقط، على أهمية تلك الوظيفة، بل تعدتها إلى وظائف أخرى، في مقدمتها وظائف اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية، فيما تشرف الوزارة على هذه الجوامع وتقوم بإعمارها وترميمها وصيانتها، حتى تظل أماكن مؤهلة للعبادة، في أبهى الصور التي تليق ببيوت الله.

وبحسابات بسيطة، تقوم بمقارنة عدد الجوامع مع عدد سكان العاصمة، يمكن القول إن جامعا واحدا في عمان مخصص لكل ألفين و خمسمائة مواطن، ما يؤكد اهتمام الدولة والمواطنين على حد سواء، بإعمار الجوامع وتوسيعها والعناية بها، إذ تتكون معظم هذه الجوامع من طبقتين في الغالب، يتم تخصيص الطابق العلوي منها للنساء، بوجود باب خاص لهن، لممارسة شعائرهن الدينية في الجوامع، وخاصة في أيام شهر رمضان المبارك، أو غيره من المناسبات.

وتأخذ جوامع عمان حلة مختلفة في أيام الشهر الفضيل، حيث تضيق مساحة هذه الجوامع على اتساعها بطالبي العبادة، والعائدين إلى رياض الإيمان، ويرى أبناء العاصمة في مختلف أحيائها أن جوامع جديدة يتم إنشاؤها باستمرار، لتنضم إلى ركب الجوامع التي تواصل نداءها البهي باسم الله، في أطراف العاصمة وقلبها المفتوح دائما على فضاء عامر بالإيمان.

ملامح عمّـانية

مطعم هاشم
(بيت الضيق الذي يتسع لكل الأصدقاء)

الذاهبون إلى وسط البلد، هكذا يسمي العمانيون مركز مدينتهم، غالبا ما تقودهم أقدامهم إلى ذلك الزقاق المكتظ بالجياع، حيث يجدون في مطعم هاشم ملاذا وسبيلا.

من يعرف عمان على حقيقتها، لابد أن يتعرف على "هاشم"، ويتردد عليه، فالمطعم الصغير لا يشبه المطاعم الأخرى، وله "حبل سري" خفي يربطه بزبائنه الذين يترددون عليه على مدار ساعات الليل والنهار.

ترى، لو كان المطعم في غير مكانه، هل اكتسب مثل هذه الشهرة، ومثل هذه الحميمة مع الناس؟، ولو كان يقدم طعاما مختلفا، هل قصده الزبائن بهذا الحجم؟.

هي أسئلة مفترضة، لكن " هاشم " يتسع لأكثر من مئة صديق، وهو لا يعترف بالضيق، حيث تمدد طولا وعرضا، لكسب مساحة إضافية لإيواء زبائنه الذين يشعرون بالألفة، ويرتبطون مع المكان بعلاقة من نوع خاص.

واحدة من سمات الاطمئنان التي يحس بها الزبائن مع هذا المطعم، أنهم لا يشعرون بالخيبة، فهو جاهز لتقديم وجبته في كل الظروف والأوقات، مطعم لا يحتاج إلى باب وقفل ومفتاح، فهو مشرع على مدار الساعة، وفاتح ذراعيه للناس في الأوقات كلها.

الحمص والفول والمسبحة والقدسية والفلافل، وزبائن أول النهار وآخر الليل، ولا تكتمل طقوس "الاحتفال"، إلا مع "فحل" البصل، الذي صار لازمة من لوازم المكان.

ليس الفقراء وحدهم من يطرقون أبواب مطعم هاشم، فقد يلتقي الذاهبون إليه، وعلى غير موعد، مع مسؤول بارز أو شخصية عامة، جاء يأكل ما تجود به مائدة المطعم المعروفة سلفا.

وليس الأردنيون وحدهم من يرتبطون بعلاقة خاصة مع هذا المطعم الاستثنائي في حياة المدينة، فالأجانب والسياح يقصدون كراسيه وموائده أيضا، زرافات زرافات، ربما ليتعرفوا على قاع المدينة، أو ليتذوقوا الأكلة الأكثر شعبية في البلاد، والسائح الذي تقوده قدماه بالصدفة، سيعود حتما، لأنه اكتشف عند "هاشم"، ما لا يعرفه في بلده البعيد.

سيرة المطعم، جزء من سيرة عمان المعاصرة، والمدينة التي تضم بين ثنايا جبالها عشرات المطاعم الراقية، من كل صنف ونوع، حافظت على هوية "المطعم"، وساهمت في مده بإكسير الحياة، كي لا تختل المعادلة، وكي لا تقف المدينة على رجل واحدة، أو تنظر للمستقبل بعين واحدة أيضا.

هل فكر "هاشم" عند افتتاح مطعمه الصغير، ذات نهار قبل سنوات بعيدة، أن مطعمه سيصبح ظاهرة شعبية من ظواهر العاصمة، رغم كل وسائل التكنولوجيا التي تجتاح العالم؟، وإذا كان المطعم يحمل اسم "هاشم وإخوانه"، فإن هؤلاء الإخوان قبلوا طائعين، أن تظل أسماؤهم مجهولة، ليتمدد الاسم ويأخذ مساحته وشهرته التي تتجاوز حدود العاصمة.

"الأشقاء الوافدون"، صارت لهم علاقتهم كذلك مع المطعم، فالمصريون والسوريون والعراقيون والسودانيون وغيرهم، سجلوا أسماءهم في قوائم الزبائن، وجلسوا تحت مظلته، تماما مثلما يجلس أبناء المدينة القدماء.

"هاشم"، قد يكون المطعم الأكثر شهرة، ليس في قاع المدينة فقط، بل في أحياء العاصمة كلها، لذلك ليس غريبا أن يكون ملاذا في كثير من الأوقات، للأدباء والمثقفين والصحفيين والفنانين، وهو الأقرب إلى نبض هؤلاء، وربما جيوبهم أيضا.

والزائر للمطعم سيرى كثيرا من "قصاصات الجرائد" معلقة على جدرانه، وهي ما كتبه المثقفون عن هذه الظاهرة العمانية التي لا تشبه غيرها.

في الطريق إلى "هاشم"، تشعر بدفء المدينة، الذي لا يتكرر في أي مكان آخر، وفي المطعم تشعر أنك في مكان لك فيه حصة، وربما حكاية، ولك فيه نصيب من الاحتفال، لذلك قد تقودك قدماك دون أن تدري، ودون استئذان من عصافير بطنك، لتمنح نفسك لحظة من الدهشة، ولحظات من الهروب من الأسئلة والإجابات.

تقول الرواية العمانية المتداولة بين بعض المثقفين، من لا يعرف مطعم هاشم، قد لا يعرف كثيرا من أسرار المدينة، فهذا المطعم لا يقدم الحمص والفول ومشتقاتهما فقط، بل يقدم صورة لم تغادر ذاكرة المكان، عن عمان التي كانت، وعمان الذاهبة باندفاع بارع، إلى تقديم نفسها عاصمة تضج بالحياة في كل الاتجاهات.

أبو أحمد النيجيري
(بائع الفستق)

كان يشبه تمثالا من القهوة، وهو منتصب بقامته الفارعة على مدخل سوق الصاغة، حتى صار أبو أحمد واحدا من معالم شارع فيصل، بل وسط البلد على امتداد مساحته.

على مدى ستين عاما، ظل هذا النيجيري الذي اعتمر الشماغ الأردني الأحمر، وفيا لمهنته الأولى، تلك المهنة التي تجاوزت اهتمام البسطاء من أمثاله، لينتقل تأثيرها إلى مختلف النخب والشرائح الأخرى.

ستون عاما وأبو أحمد يدير ظهره إلى بريق الذهب المنبعث من جوار عربته البسيطة، مكتفيا بما يدخل جيبه من قروش متواضعة، تعينه في الحصول على لقمة الحلال.

لو قدر لوسط البلد أن يتحدث، ولو تم استنطاق شارع فيصل، لسمعنا كثيرا عن سيرة هذا الرجل الذي أصبح توصيفه "بائع الفستق النيجيري"، لكن الحاج "أبو أحمد" ظل طوال سنوات عمره التي امتدت إلى الثمانين صامتا، لا يتحدث إلا بميزان، مستبدلا كلماته بابتسامة لم تفارق ثغره، حتى تأكد زبائنه أن قلب الرجل عامر بالقناعة.

محمصه البدائي الذي ظل متنقلا، نجح في منافسة التكنولوجيا الحديثة، وظل لهيب خشب السحاحير، قادرا على اجتذاب مزيد من الزبائن، لتذوق الفستق والبزر الذي برع هذا النيروبي في صناعته، وهو يملك مذاقا خاصا لا توفره أرقى المحامص الحديثة.

ربما لم يكن قد سمع باسم عمان، حين رافق خالته ذات يوم من عام ١٩٤٦، مغادرا نيروبي في طريقهما إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، لكن وفاة خالته في السودان، لم تمنع الشاب ذا السبعة عشر ربيعا، من إكمال مسيرته إلى مصر، ومنها إلى فلسطين، حيث وجد نفسه عام ١٩٤٨ يسير مع جموع اللاجئين في الطريق إلى عمان، التي قضى فيها ما يزيد على الستين عاما.

اسمه "عمر محمد حمزة النيروبي"، لكن زبائنه عرفوه باسم أبي أحمد، وبعضهم كان يضيف كلمة الحاج، إلى اسم الرجل الذي لم يعد غريبا، في مدينة فتحت ذراعيها لاستقبال الأشقاء والأصدقاء دائما، وصار النيجيري القادم مع جموع اللاجئين الفلسطينيين في عام النكبة، أردنيا، وأبا لعائلة قوامها أربعة أبناء وبنتين.

ستون عاما ظل فيها أبو أحمد ملتصقا بقاع المدينة، وكثيرا ما كان يقطع المسافة بين منزله العتيق في جبل الجوفة، إلى حيث يستريح محمصه البدائي في مدخل سوق الصاغة، سيرا على الأقدام، ليرتبط بعلاقة من نوع مختلف مع عمان العتيقة، الذي صار بائع الفستق جزءا من نبضها الشعبي.

السيارة التي صدمته على الرصيف، ليس بعيدا عن رائحة الفستق والبزر المنبعثة من محمصه البدائي، لم تكن تعرف أنها تصدم جسدا نحيلا التحم بحياة عمان، أو تصدم عمودا من أعمدة تاريخها الإنساني، لكن أبا أحمد الذي أقعدته تلك الحادثة عن ممارسة مهنته، لم يطق العيش بعيدا عن رائحة الفستق ومحبة زبائنه، فكان يصر على المرور في الشارع نفسه، وهو داخل سيارة، لكي لا تغادر أنفه رائحة التاريخ المنبعثة من زوايا الشوارع العتيقة التي أدمن لغتها، وأعطته شيئا من أسرارها.

لم يكن زبائنه من بسطاء الناس فقط، فقد عقدت الدهشة في أحد الأيام من عام ٢٠٠٨ لسان النيجيري، وهو يجد أمامه الملكة رانيا العبد الله، تطلب شيئا من الفستق ذي النكهة المختلفة، ومع أنه لم يتحدث مع الملكة كثيرا، إلا أن ابتسامته لم تغادر محياه، وصارت تلك اللحظة مادة للحديث الحميم، باعتبارها اللحظة الأهم في حياته.

مطلع عام ٢٠١٠، توفي هذا النيجيري الذي لم يعد غريبا بعد أن حصل على الجنسية الأردنية، لكن عمان فقدت برحيله شيئا من سماتها، وبعضا من ملامحها المميزة.

صدر للشاعر

- **في السيرة:**

١) بير الرصاص، سيرة ذاتية، عمان ٢٠٠٩.

٢) علي السرطاوي، سيرة شاعر، المرصد، عمان ٢٠١٠.

٣) الموسيقار روحي الخماش، سيرة وإنجازات، أمواج، عمان ٢٠١٣.

- **في التراجم:**

١) موسوعة الشخصيات الأردنية، ج ١، عمان ٢٠٠٩.

٢) موسوعة الشخصيات الأردنية، ج ٢، عمان ٢٠١٢.

- **في الحوار الثقافي:**

١) وهج الأسئلة، أحمد المديني يتحدث، أزمنة، عمان ٢٠١٠.

٢) الشمعة والدرويش، حميد سعيد يتحدث، دجلة، عمان ٢٠١٢.

٣) الكتابة بلا انقطاع، سامي مهدي يتحدث، دجلة، عمان ٢٠١٣.

- **في الدراسات:**

١) الأمثال الشعبية الفلسطينية، قراءة معاصرة، دجلة، عمان ٢٠١١.

٢) كفل حارس نصيب من الشمس، أمواج، عمان ٢٠١٣.

٣) أديب ناصر شاعر الموقف، دجلة، عمان ٢٠١٣.

- **في الشعر:**

١) حوارية الجميز والحجارة، كاظمة، الكويت ١٩٨٩.

٢) أمير مجدو، الأمد، بغداد ١٩٩٣.

٣) دفاعا عن اللحظة الراهنة، بغداد، ١٩٩٤.

٤) ما لم تقله شهرزاد – باللغتين العربية والإنجليزية، ترجمة نزار سرطاوي، عمان ٢٠١٣.
٥) أسئلة الوقت، دجلة ناشرون وموزعون، عمان ٢٠١٤.
٦) رفيف الكلام، دار فضاءات، عمان ٢٠١٥.
٧) أقتفي خطو ذاكرتي، دار دجلة ناشرون وموزعون،-عمان ٢٠١٥.
٨) ما قاله الراعي لصاحبه، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان ٢٠١٦.
٩) ديوان هشام عودة (١٩٨٩ – ٢٠١٦) مرسال الحديثة ناشرون وموزعون، عمان ٢٠٢٠.
١٠) درج العتمة، مرسال الحديثة ناشرون وموزعون، عمان ٢٠٢١.
١١) رجْمُ الصدى-مختارات- خطوط وظلال- ٢٠٢١.

الفهـرس

للاطلاع على قائمة منشورات وأخبار الوزارة
يُرجى زيارة العناوين التالية :



موقع وزارة الثقافة الإلكتروني
www.culture.gov.jo



رابط صفحة وزارة الثقافة على الفيس بوك
www.facebook.com/culture.gov.jo